الجمع بين القراءتين

قراءة الوحى وقراءة الكون

الطبعـــة الأولى

١٤٢٧ هـ ــ يناير ٢٠٠٦ م



٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسي ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

دراسات قرآنية
(٢)

الجمع بين القراءتين
قراءة الوحي وقراءة الكون

د. طه جابر العلوانى

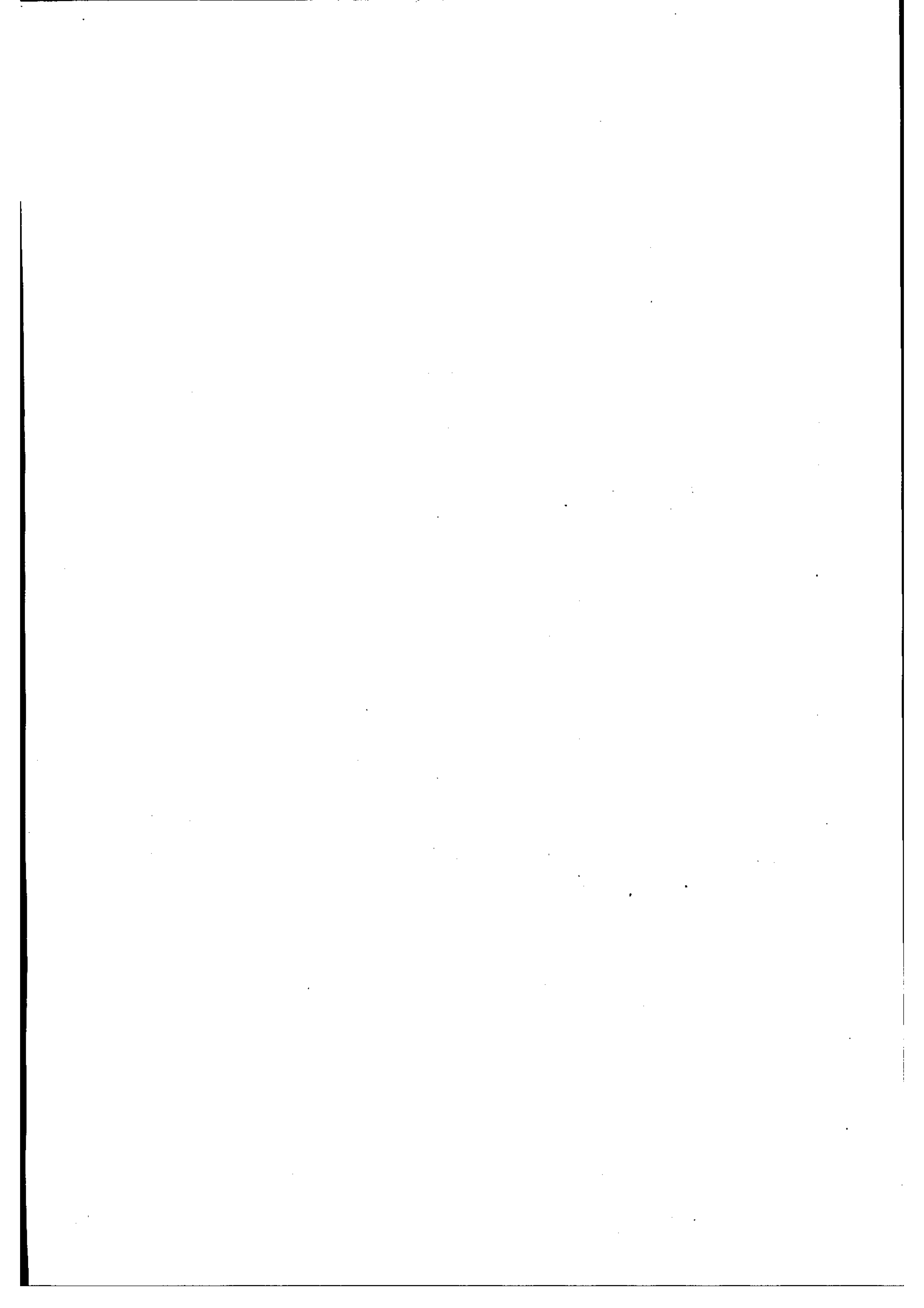
مكتبة الشروق الدولية

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

[الرحمن: ٣، ٤]



مقدمة

الحمد لله رب العالمين . نستغفره ونستعينه ونستهديه . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . ونصلِّي ونسلِّم على سيدنا محمد عبد الله ورسوله ، وصفيِّه وخليله ، وخيرته من خلقه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وصحابته الأكرمين ، ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعد : فإنَّ القرآن المجيد كلام الله ـ تبارك وتعالى ـ أنزله على قلب رسوله الأمين ، ونبيِّه الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - ليكون للعالمين نذيراً .

فهو النور المبين ، والذكر الحكيم ، والكتاب العزيز . يُخرج من الفتن ، ويَشفي الصدور ، وينقذ من المحن : ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة : ١٦] .

فهو الهادى إلى الرشد ، والمنقذ من الضلالة ، لا تنقضي عجائبه ولا يَخلَقُ من كثرة الرَّد . قال الإمام محمد بن إبراهيم الوزير (ت : ٨٤٠هـ) وهو يؤكد على ضرورة الرجوع إلى القرآن المجيد ، وحثِّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على ذلك وتقديمه على كل ما عداه : قال « . . . فلنقتصر على حديث مشهور يذكر بأمثاله » .

وذلك مما رواه السيد الإمام أبو طالب - عليه السلام - فى أماليه، والحافظ المحدِّث أبو عيسى الترمذى[1] فى جامعه من حديث الحارث بن عبد الله الهمذانى صاحب علىّ - عليه السلام - قال: مررت فى المسجد، فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث. فدخلت على عليّ - عليه السلام - فأخبرته فقال: أوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أمَا إنِّى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «ألا إنَّها ستكون فتنة». قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه. هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدى إلى الرشد، فآمنا به. من قال به صدق، ومن عمل به أجرَ، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم». انتهى هذا الحديث الجليل. وقد رواه السيد الإمام أبو طالب - عليه السلام - فى أماليه بسند آخر من حديث معاذ بن جبل - رضى الله عنه.

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه: (٥ / ١٧٢) وفى الطبعات التى رقمت فيها الأحاديث رقمه (٢٩٠٨) فى باب «فضل القرآن» وقد استدل به صاحب «إيثار الحق . . .» فى كتابه «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» ص ١٥.

عن رسول الله[٢] - صلى الله عليه وآله وسلم - بنحوه. ورواه أبو السعادات ابن الأثير في جامع الأصول من طريق ثالثة، من حديث عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه.

قال[٣]: ولم يزل العلماء يتداولونه، فهو مع شهرته فى شرط أهل

(٢) مارواه معاذ عن عليّ جاء فى (مجمع الزوائد: ٧/ ١٦٤).

(٣) والمروى بطريق عمر تجده فى «جامع الأصول: الحديث رقم (٦٢٣٢)» لكنه ورد فيه عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - وقال المحقق السيد عبد القادر الأرناءوط معلقًا «كذا فى الأصل - أى: عن عبد الله بن عمر، وفى المطبوع: عمر بن الخطاب» ولم يرجح. وفيه اختلاف يسير عن رواية الإمام أبى طالب والترمذى، حيث جاء فى هذه الرواية قول ابن عمر: «... نزل جبريل - عليه السلام - على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأخبره: أنها ستكون فتن، قال (أى: رسول الله لجبريل): «فما المخرج منها يا جبريل؟» قال: كتاب الله... إلخ، وقد أخرجه رزين وذكره ابن كثير فى فضائل القرآن بمعناه عقب حديث الحارث من حديث عبد الله بن مسعود، وقال (أى: ابن كثير): رواه أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتابه «فضائل القرآن» وقال: هذا غريب من هذا الوجه.

وفى سنن الدارمى أورد الحديث فى (٢/ ٥٢٣) برقم (٣٣١٥) عن عبد الله وبدأه بقوله: «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم...»، وختمه بقوله: «فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته...». وأما باللفظ الذى معنا فقد أورده الدارمى فى الحديثين رقمى (٣٣٣١) و(٣٣٣٢). وقد علق المحققان عليه بقولهما: «رواه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن، باب (١٤) ما جاء فى فضل القرآن، حديث رقم (٢٩٠٦) ٥/ ١٧٢-١٧٣. وأحمد فى المسند (١/ ٩١). وأبو داود الطاليسى وأبو بكر الأنبارى فى كتاب «الرد» له عن الحارث عن على. كما فى التذكرة للقرطبى ص (٤٨) بتحقيقى. قال ابن كثير فى فضائل القرآن (ص ١١-١٢): «لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظى، عن الحارث الأعور، =

الحديث متلقّى بالقبول عند علماء الأصول، فصار صحيح المعنى فى مقتضى الإجماع والمنقول والمعقول. وقد أودع الله - تبارك وتعالى - كتابه الشرعة والمنهاج فأنقذنا به من الضلالة، وفتح للعالمين به أبواب رحمته وسبل هدايته. فحمدًا له سبحانه على هدايته، والشكر له على نعمائه وعنايته، أغنانا به - جل شأنه - عمّا سواه. وكفانا به عمّا عداه:

= فبرئ حمزة من عهدته، على أنه وإن كان ضعيف الحديث، فإنه إمام فى القراءة. والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده (أى: لا من جهة روايته وصدقه)، أما أنه تعمد الكذب فى الحديث فلا والله أعلم. وهذا الحديث إن لم تتسع لتصحيحه شروط المحدثين، فلا أقل من أن يكون أثرًا صحيح المعنى من كلام أمير المؤمنين على - رضى الله عنه-، وقد وهم بعضهم فى رفعه، وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه-» أ. هـ. والآية رقم ٢ من سورة الجن.

قلت: وفى بعض الشروح حددت «فتنة الحديث أو الأحاديث» بأنها الافتتان برواية«الأحاديث» أو «السنن» عن تلاوة القرآن المجيد ودوام الرجوع إليه، وبعضهم حملها على الأحاديث والأخبار مطلقًا، ففى كل ذلك انشغال عن القرآن وقد يستفيد القائلون بذلك بأحاديث النهى عن كتابة السنن والتأكيد على عدم الانشغال بغير القرآن.

(قال طه) -: ولكن الفرق كبير بين انشغال بأحاديث نبوية مرفوعة صحيحة تأتى على سبيل البيان بأنواعه للقرآن المجيد، وبين مطلق الحديث. وفرق كبير بين انشغال لطلب بيان والانشغال بها على سبيل الاستعاضة عن القرآن، والاكتفاء بها بحجّة اشتمالها أو تضمنها للقرآن أو بأى حجة أخرى.

لقد استقرت المذاهب الفقهية فى العهد الرابع من عهود الفقه وركدت حالة الاجتهاد المطلق، وعكف المقلدون على مذاهب الأئمة، والكتابة فى مناقبهم، والعمل على ضم الناس إليهم كلّ إلى مذهبه وإمامه. وجعل بعضهم أقوال أولئك الأئمة مثل نصوص الشارع يدخلها التعارض والترجيح والنسخ وما إليها، أمّا فى عصر الصحابة وبخاصة - عصر الشيخين - فلم يشغلهم شىء عن كتاب الله، ولما انتهت سنة أربعين للهجرة برزت اتجاهات فقهية وبدأ الناس ينشغلون بها. =

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(العنكبوت : ٥١).

فنسأله ـ تعالى ـ كما أنعم علينا بالقرآن العظيم، والرسول الكريم- صلى الله عليه وآله وسلم - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وأن يعلمنا منه ما جهلنا، ويذكرنا منه ما نسينا، ويجعله حجة لنا، لا علينا، وقائدًا لنا إلى الجنّة. إنّه سميع مجيب.

= وحين كان عبد العزيز والد عمر واليًا سنة (٨٣ هـ) فكر فى جمع السنن، وهو مشروع استكمله ولده عمر بن عبد العزيز، لتكون السنن فقهًا بديلاً عن الفقه الخلافى يرجع الناس إليها لئلا تتفرق بهم السبل الفقهية، ولكن الكثيرين انشغلوا بالسنن عن القرآن المجيد بحجة اشتمالها عليه وارتباطها به، وجعلوا من السنن شواهد لأقوال أئمة الفقه، ثم انشغلوا بفقه الأئمة عن السنن، وصاروا يتداولون أقوال الأئمة ويفرعون عليها حتى بدا وكأن الشريعة هى أقوال هؤلاء الأئمة، بحيث سوغ الكرخى الحنفى لنفسه أن يقول فى أصوله: «أصل: كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهى إما مؤولة أو منسوخة».
«أصل: واعلم أن كل حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو إما مؤول أو منسوخ»!!
ومهما يقال فى تأويل ذلك أو التخفيف منه فإنه قول جريء يدل على أن التعصب للمذاهب قد بلغ مستوى مَرَضيًا بحيث صار الأصل تابعًا للفرع، بل محكومًا به. ولذلك فإن إعادة بناء الأمَّة واستئناف شهودها الحضارىّ وشهادتها على الناس لا يمكن أن تعود إليها ما لم تتجاوز هذه الإصابات الخطيرة، وترد الناس إلى القرآن المجيد مصدرًا منشئًا وكاشفًا عن الأحكام وغيرها مما تناوله أو تعلق به فقد أنزله الرحمن الرحيم «حكْمًا وحَكَمًا وشفاءً للمؤمنين» أمّا ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : ٨٨]. وما اختلف فيه أو عليه لابد فيه من الرجوع إلى السنّة النبويّة التى صدرت عن رسول الله ﷺ ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٦٤].
وعلى هذا فالمعنى الوارد فى هذا الحديث أو الأثر معنى صحيح يشهد له صريح الكتاب وصحيح السنَّة. والله أعلم.

الأمر بالقراءتين

لقد أمر الله تعالى نبيّه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى مفتتح نزول القرآن وعند بدء الوحى بقراءتين. فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. وبما أنّ القرآن ليس فيه تكرار ولا ترادف، ولا تحتاج آياته الكريمة إلى استعمال المؤكدات، فإنّ كل كلمة من كلماته ـ وإن بدت مرادفة أو مماثلة لأختها ـ فإنها تشتمل على معنى آخر إن لم تدل عليه بلفظها وبالاستعمال القرآنى لها فإنّها تدل عليه فى سياقها وسباقها(٤).

---

(٤) يعد «السياق» فى القرآن هو المنتج للدلالة والموجه إلى المدلولات، ومع شدة عناية البلاغيين وكثرة حديثهم عنه غير أنهم لم يعرفوه تعريفًا جامعًا مانعًا، وكأنهم عَدُّوه مما يدرك بدون تعريف، أو أنهم اكتفوا بوصفه وبيان آثاره، واستغنوا بذلك عن تعريفه. والأصوليّون قد أبدوا اهتمامًا شديدًا بدلالة السياق. فالسياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد... وذلك لأن دلالة النصوص نوعان: حقيقيَّة وإضافيَّة، فالحقيقيَّة تابعة لقصد المتكلم وإرادته وهذه الدلالة لا تختلف. والإضافيَّة تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكره وقريحته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها. وهذه الدلالة تختلف اختلافًا متباينًا بحسب تباين السامعين فى ذلك...» راجع بدائع الفوائد لابن القيم (٤/٩١٤-١٠) وإعلام الموقعين (١/ ٣٥٠-٣٥١) وقد أوردت ابنتنا د. رقية تفاصيل مهمة فى «دلالة السياق» وتقسيمات قديمة وحديثة له أوضحت هذه الدلالة بما لا يستغنى الباحث فى هذا المجال عن مراجعته، فراجع ذلك فى رسالتها القيِّمة «أثر العرف فى فهم النصوص: قضايا المرأة أنموذجًا» رسالة دكتوراه طبع ونشر وتوزيع دار الفكر فى دمشق عام ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣م ص٢٦٠-٢٦٥. وكذلك رسالة صديقنا د. إبراهيم أصبان التى نال بها درجة الدكتوراه بعنوان «دلالة السياق فى القرآن» لم تطبع طبعة عامة.

وموقعها[٥]. وذلك من دلائل إعجازه الذى تعالى به على كلام المخلوقين. ولذلك فإن صيغة الأمر بالقراءة الذى جاء مرتين فى هذه الآيات الخمس لا تعنى التوكيد أو الترادف أو التكرار كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين[٦].

بل تدل على أمرين بقراءتين، لكل منهما معناها المراد بها، ولكل منهما خصائصها، ومجالها ومتعلّقها، ومناهجها وكيفيأتها وميادينها. يعضّد هذا ويعزّزه. أنّ الأمر بالقراءة فى الآية الأولى اقترن ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾

(٥) أما السباق: فهو لصيق جداً بالسياق، وكبير الأثر فى إدراك المناسبات، وهو ربط الكلمات والآيات والسور بما يسبقها، وحسبانها حلقة فى سلسلة مترابطة.

(٦) نحو القرطبى الذى عدّ «اقرأ» الثانية توكيداً، وجعلها تمام الآية الأولى (٢٠ / ١١٩) والألوسى (٢٩ / ١٨٠). ويشير عدم ذكر فعل «اقرأ» الثانية لدى الطبرى إلى حسبانها مرادفًا، أو توكيداً فراجع (٩٢ / ٢٥٣) منه. أما الرازى فقد أعطى لكل من الفعلين معنى يخصه فقال- ناقلاً عن بعضهم: «اقرأ - أولاً - لنفسك. والثانى للتبليغ أو الأول للتعلم من جبريل والثانى للتعليم. أو اقرأ فى صلاتك والثانى خارج صلاتك» فانظر تفسيره (٣١ / ١٦). وقال البغوى فى تفسيره «معالم التنزيل»: «اقرأ: كرره تأكيداً، ثم استأنف .. وربك الأكرم» (٤ / ؟) أما ابن كثير فلم يذكر عن «اقرأ» الأولى والثانية شيئًا (٨ / ٤٥٩) ط دار الشعب القاهرة. وذهب ابن الجوزى فى زاد المسير (٩ / ١٧٦) إلى أنها للتوكيد كذلك. وابن عاشور فى تفسيره التحرير والتنوير (٢٠ / ١٣٣) أورد ثلاثة أقوال: الثانى منها: « .. أن الباء فى «باسم ربك» للمصاحبة، والمجرور فى موضع الحال من ضمير «اقرأ» الثانى مقدّماً على عامله للاختصاص - أى: اقرأ ما سيوحى إليك مصاحبًا قراءتك اسم ربك. فالمصاحبة مصاحبة الفهم والملاحظة لجلاله، ويكون هذا إثباتًا لوحدانيّة الله بالإلهية ....». وهذا هو الأقرب لما ذهبنا إليه. وأما الطوسى فقد اعتبر الباء زائدة، ومفعول «اقرأ اسم ربك» وأما « اقرأ» الثانية فمفعولها المقدّر هو «القرآن» فانظر التبيان (١٠ / ٣٧٩).

وكـانت صلة الموصـول- «الذى» -هى الخلق فى : ﴿ . . . الَّذى خَلَقَ *خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ فهى أمر بتحصيل فعل القراءة وممارسته مع الاستعانة بالله ـ تعالى ـ فهو ربك الذى يعلم أنَّك ﴿مَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِه مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت : ٤٨]، ولذلك ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى : ٦]. خلافاً لأى قارئ آخر معرَّض للنسيان والخطأ. فاقرأ باسمه هو، واستعذ به من الشيطان الرجيم. ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل : ٦٨]. والذى خلقك من علق، وخلق النوع الإنسانى ـ كله ـ منه قادر على أن يخلق فيك فعل القراءة، ولو لم تكن قارئًا من قبل. وكل ما عليك أن تقرأ ما سنوحيه إليك وهو القرآن، والذى خلقك ورعاك وأنشأك من علق، وخلق كل شىء فقدره تقديراً قادر على أن يعلمك القراءة، كما علم آدم الأسماء كلّها، وكما علّم أباك إبراهيم وسواه من الأنبياء والرسل. فاقرأ باسمه وعلى اسمه ومعه وفى ذلك تنبيه من بداية الأمر على انفصاله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن قومه الذين كانوا يبدأون أفعالهم مستعينين باللات والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى، وكلّها أوثان يصنعونها بأنفسهم، ولا تصنعهم، ويخلقونها ولا تخلقهم.

كما أن فى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ تنبيهًا إلى وجوب قراءة الخلق قراءة تبدأ بقراءة الذات الإنسانية من بداية الخلق إلى نهاية الحياة بأطوارها كلها. فمنهج القراءة فى الخلق ينطلق من قراءة النفس

باتجاه الكون والآفاق. فتلك هى القراءة السليمة المنهجية. والبدء بتوحيد الربوبية، لا بتوحيد الألوهية، فيه تنبيه إلى خطوة منهجية أخرى، هى الانطلاق من المحسوس باتجاه المجرَّد، لأن الإنسان أقدر على ملاحظة المحسوس منه على ملاحظة المجرَّد وإدراكه. فالخلق، وبدائع صنعه، ونظمه وسننه وقوانينه هى المحسوس المشاهد أو المدرك بأى وسيلة من وسائل الإدراك. والمجرّد هو «التوحيد» بأنواعه، فهو ما يتوصل بصحيح النظر فى ذلك المحسوس إليه. فإدراك المحسوس ليس نهاية المطاف، بل هو المقدمة لإدراك المجرّد. وهنا يمكن أن يدرك الإنسان «فعل الغيب» فى الواقع: فيصل إلى الربط الضرورىّ بين الغيب بكل مكوناته، والإنسان والكون.

القراءة الأولى

الأمر الأول بالقراءة ـ إذن ـ: هو أمر بقراءة[7] باسم الله أو على اسمه ـ تعالى ـ ومعه، لهذا الوحى النازل الذى سيتتابع نزوله حتى يتم قرآنًا كريمًا مجيدًا مكنونًا مفصَّل الآيات، محكمًا مترابطًا متماسكًا متناسبًا

(٧) راجع تفسير الرازى فقد ضعَّف ما ذهب إليه جل المفسرين من القول بزيادة «الباء» فى «باسم ربك» ورجح أن الباء ليست زائدة وذكر لها ثلاثة أوجه (٣١ / ١٣، ١٤) ط دار الفكر. وانظر التحرير والتنوير (٢٠ / ٤٣٦) وذكر أن «الباء» للاستعانة أو المصاحبة أو بمعنى «على»، وذلك قريب مما ذكر الفخر. ومثله فى روح المعانى للألوسى (٢٩ / ١٧٩) ط مكتبة دار التراث - القاهرة بدون تاريخ. وقال الطباطبائى فى الميزان: «إن الباء للملابسة» (٢٠ / ٣٢٣).

متشابهًا تتلوه يا محمد على الناس، وتبيِّنه لهم ليتعلّموا منه الحكمة والهداية والرشد فتزكو نفوسهم، وتطهُر حياتهم، ويهتدوا به فى أداء مهام الاستخلاف، والقيام بواجب الائتمان، وحق العمران، وحين رد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ بأنه ليس بقارئ[8] لا شك فى أنَّه فهم المطلوب، وهو قراءة ما سيملى عليه وهو لا يعرف القراءة والكتابة، وليس له من العلم ما يقرؤه، ولذلك فإنه تعالى قد ربط القراءة ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، فكأنَّه قال له: إنَّك لن تكون وحدك فى أداء هذا الفعل الذى لا تعرفه، بل سيكون معك ربك الذى أعطاك الكثير وهو قادر على أن يعلمك كيفية أداء ما أمرك به. ويزيد على ذلك: كما علم آدم الأسماء كلها، وكما علم إبراهيم وموسى وعيسى وسواهم من النبيين والرسل ـ عليهم السلام ـ من قبلك، فاقرأ باسمه واستعن به فى القراءة يعنك ويصحبك ويكن معك فيها، وفى بيانها وتعليمها وإقامة الحجة بها على الناس.

وذكر الرب ـ جل شأنه ـ الإنسان، وذكر خلق الإنسان بالذات فيه طمأنة لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأنَّ منحه القدرة على القراءة ليس بالأمر الصعب على ربِّه الذى خلق كل شىء، وخلق

---

(8) اشارة لحديث «بدء الوحى» الذى أخرجه البخارىّ فى باب: كيف بدأ الوحى إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - وقول الله - جل ذكره-: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]. الحديث رقم (٢ و٣).

الإنسان من علق، (بل هو عليه هين كما أنَّ فى ذكر الخلق تهيئة لذهنه الرشيد ونفسه الشريفة - صلى الله عليه وآله وسلم - لبيان النوع الثانى من القراءة.

القراءة الثانية

ألا وهى قراءة الكون والنظر فى الخلق، ومعرفة ما دونته البشرية من فهم له، وتجارب فيه بأقلامها؛ فهذه القراءة هى التى صاغ القرآن المجيد بحسبها «دليل الخلق ودليل الإبداع، والتكليف بالنظر العقلىّ فى الوجود، والنظر فى آثار الأمم السابقة، ومعرفة ما حدث لها». فبذلك تكون القراءة المأمور بها قراءتين: قراءة فى الكون المخلوق، وكل ما يتعلق به من عالم الخلق، والتشيؤ بما فى ذلك تراث الأمم الذى دونته وآثارها، فبالقراءتين تدرك الفروق بين الأمم التى استفادت بالوحى واتبعته، واستنارت به، وبين الأمم التى تجاهلته، وتعاملت مع الطبيعة أو الكون - وحده - دون استنارة بهداية الوحى. أو أهملت الكون والتجارب البشريّة وعبر التاريخ ودروسه. وقراءة الوحى المنزل على قلب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم، بحجة الاكتفاء بالوحى والاستغراق فيه. فمن أراد أن يقرأ الوحى بدقة وتدبر فإنه لا غنى له عن قراءة الكون وما فيه بالنظر فى خبرات الأمم السابقة وتجاربها، ومعرفة الحضارات الغابرة وكيف سادت ثم بادت أو اندثرت. فلقد اعتنى القرآن به عناية فائقة، ولفت الأنظار إلى ذلك فى سور كثيرة، وآيات كثيرة، لما فى ذلك

من عبر ودروس وعظات تجعل السالف قادرًا على إفادة الخالف مهما طال الأمد فيما بينهما. وتجعل الخالف يرى نتائج أفعال من سبقوه فيدرك أن أفعاله - أيضًا - سيكون لها من الآثار مثل ما لأفعال من سبقوه إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. وفى ذلك تكريس لمبدأ «المسئولية الفردية، والأثر الجماعى أو المجتمعى» فيتعلم الإنسان بذلك كيفية الانضباط فى أفعاله وتصرفاته، ويتهيَّأ عقله ونفسه لقبول «مبدأ الجزاء والعقاب والثواب» ويتعلم النظر فيما يرث عن الآباء نظر الفاحص الناقد المعتبر فيتخلص من هيمنة مبدأ «الآبائية» وتقليدها ومتابعتها على الحق وعلى الباطل، ويدرك كذلك أنّ للأمم التى خلت ما كسبت، ولنا ما نكسب ولا يغنى أحد عن أحد من الله شيئًا.

قراءة الكتابين

فهما - إذن - كتابان تجب قراءتهما - معًا - للخروج من إسار الأمية بكل أشكالها ومعانيها: كتاب منزل متلو معجز وهو القرآن، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والكون والتجارب البشرية فيه، ومنه التعامل مع الإنسان نفسه، فهو جزء من الخلق وابن شرعىٌّ للطبيعة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

القراءة إنسانية

وهذه القراءة تكون ابتداءً من الإنسان، فهو الذى لابد له من قراءتهما

ـ معًا ـ لتوجد لديه المعرفة العمرانيَّة الكاملة، التى تمكن الإنسان من الوفاء بالعهد، والقيام بمهام الاستخلاف، وأداء حق الأمانة، والقيام بمقتضيات العمران، والنجاح فى اختبار البلاء. وهى معرفة لا تقوم على التلقى والتلقين وحدهما، بل على الأخذ عن الغير - أيضًا - من سابقين ولاحقين بالمراجعة والمطالعة وقراءة الكتب وكتابتها وتناقل الخبرات والمعارف بين البشر وعدم الزهد فى المعرفة من أى وعاء خرجت، والتعامل المنهجى معها.

وحدة البشرية

وفى ذلك تنبيه على «وحدة البشرية» وضرورة استفادة اللاحق بميزات السابق من المعرفة والخبرات والتجارب، والتواصل معها، واستعمال القلم - الذى علم الله به، وجعله وسيلة للمعرفة وتبادلها وإنمائها وتناقلها ـ ثم ما يمن الله ـ تعالى ـ به من معارف تنقدح بها العقول من مستنبطات ومخترعات وغير ذلك مما يندرج تحت قول الله تعالى: ﴿عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]. فهناك - إذن - مصدران للمعرفة الإنسانية - لن نمل التأكيد على ترابطهما - يتضافران فى توصيل الإنسان إلى معارف الشهود الحضارى، والقيام بمهام العمران والاستخلاف فى هذا الكون، ولابد للإنسان من الجمع بينهما، وعدم الغفلة عن أى منهما؛ فيفهم القرآن العظيم ومدلولاته بالخلق وبالوجود والسنن

والقوانين الضابطة لحركته وحركة ما فيه، ويفهم الكون ويهتدى فى أداء مهام الخلافة فيه والعمران، والقيام بمقتضيات الأمانة بالقرآن المجيد ونور هدايته. ولابد من قراءة المصدرين- معًا- ، وتنفيذ الأمر بالقراءتين سويّا: قراءة الوحى النازل المتمثل فى الكتاب الكريم الذى حدَّد غاية الحق من الخلق وبيَّن تلك السنن والقوانين الضابطة لحركة الوجود. إضافة إلى ما اشتمل عليه من الشرعة والمنهاج. والحقائق الأساسية التى تحتاج إليها البشرية. وقراءة فى الكون وآفاقه والنفس البشريَّة وما يصلحها أو يفسدها. والفطرة، وما ينميها، وما يطمس عليها.

أخطاء القراءات المنفردة وسلبيَّاتها

إذا تبين هذا يتضح أن القراءتين فى الوحى وفى الكون فريضتان، لأنهما أمران إلهيان فيهما كل ما فى الأمر الملزم من شروط وصفات، والجمع بينهما ضرورىٌّ، إذ بدونه يقع الخلل.

إهمال القراءة الأولى

فمن تجاوز القراءة الأولى فى الوحى النازل إلى النبيين، واستغرق استغراقًا كليًا فى القراءة الثانية التى تمثل علم الكون أو معارف الطبيعة، منقطعة عن الله ـ تعالى ـ فقد العلاقة بالله، وتجاهل الغيب، وانطلق بفلسفة إنسانية مستقلة وضعية منبتة عن الله، عوراء قاصرة فى

مصادرها، تحاول أن توحد بين الإنسان والطبيعة بإطلاق. وتَعُدُّ الخالق والغيب كله مجرد ما ورائيّات أو ميتافيزيقا يمكن تجاهلها أو تجاوزها. وإذا كانت - هناك - قوة غيبية قد مارست خلقًا أو إيجادًا، فقد تكون مارسته بقوة الدفعة الأولى، ثم تناسته أو نسيته ليستمر الكون بعد ذلك فاعلاً ومنفعلاً بشكل آلىّ كما ذهب إلى ذلك أرسطو(٩) فى القديم، ونيوتن(١٠) وغيره فى الحديث. وحين يحلو لبعض هؤلاء المتفلسفين أن يتذكروا البارئ - جل شأنه - فإنّهم قد يتذكرونه بشكل حلولىّ يزعم أصحابه أنّ الله - تعالى - قد حل فى قوى الطبيعة ذاتها، وذاب فيها ليتحول إلى جزء حالٍّ فيها لينتهوا بعد ذلك إلى «الماديَّة الجدليّة» - التى أنكرت الخالق تمامًا، وطرحت بدائل له من اتجاهات النمو عبر خصائص التطوُّر المادىّ المعقّد ليشعر الإنسان باندماجه الكامل بالطبيعة بحسبانها كائنًا طبيعيًا، وهنا يبدأ الإنسان بالشعور بالغنى أو الاستغناء عن خالقه - جل شأنه-، لأنه لم يعد يرى غير الطبيعة أمامه فهى كل شىء، وهى وراء كل شىء، وهو فى ظاهر الأمر قادر على قهرها بالعلم: فلا يراها وهى مُسَخَّر مقهورة بسنن الله تعالى، بل يراها كونًا مستقلاً أى امتدادًا غيبيًا،

---

(٩) أرسطو: فيلسوف شهير ومعلم يونانى يُعَدُّ من أهم فلاسفة اليونان القدماء، ترجم فلاسفة المسلمين تراثه الفلسفى، والمنطقى، وأعجب الكثيرين منهم، حتى إنهم قد لقبوه «بالمعلم الأول». (٣٨٤-٣٢٢) ق.م.

(١٠) نيوتن، إسحاق: فيزيائى إنكليزى صاحب قانون الجاذبية العام وقوانين الحركة. (١٦٤٢-١٧٢٧) م.

وآنذاك لا يشعر بأن الله - تعالى - قد سخرها له، وأنّه الخالق له ولها، بل يرى الإنسان أنه الفاعل المبدع، المتعدّد القدرات، المسيطر على الطبيعة، المفجِّر لكوامن ما فيها: وفى ذلك انحراف فى الرؤية والتصور خطير. فالكون مهيأ مسخر للإنسان، والإنسان مزود بالقدرات التمكينية الذهنية والعقلية والعلمية التى تمكنه من تسخير الكون، ليقوم بأمانة الاستخلاف، وحين يغفل الإنسان أو يعشو عن ذكر الرحمن، ولا يرى القدرة الإلهية فى ذلك كله ظاهرة بهداية الوحى يشده الشعور بالاستغناء، والإحساس بالقدرة والإبداع إلى أن يجعل من علاقته بالكون علاقة تسلّط وقهر وصراع واستعلاء، لا استخلاف. ويفقد بوصلة الاهتداء، وتفقد عناصر الطبيعة علاقتها الوديّة بالإنسان، ويفقد الإنسان بدوره شعوره بأنه المخلوق المستخلف المؤتمن على الكون كلّه، وأن كل هذه الأشياء المخلوقة مسخّرة لهذا المؤتمن والمستخلف، وكلاهما فى المخلوقيَّة والعبوديَّة لله - تعالى - سواء، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. فإذا فقد هذا التصور فقد يتخذ الوجود - فى نظره - شكل القوى المتصارعة المتنابذة، ويتخذ الإنسان الغافل - من نفسه وهواه - شكل المتألّه المسيطر بالعلم على كل شىء، فيمجد ذاته ويتخذ إلهه هواه، ويتوهم أن له أن يستمد قيمه من ذاته ومن الطبيعة. والدين والإيمان - نفسه - قد يتحول فى إطار هذه القراءة المنفردة العوراء إلى شىء يوظفه من شاء ساعة يشاء لتلبية رغبة، أو لأداء خدمة. وهنا يحق

عليه القول: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧]، فيقع فى الاستبداد والطغيان على أخيه الإنسان. وتحدث كوارث البيئة، ويظهر التلوث والفساد فى البر والبحر والجو بما كسبت أيدى الناس، ويختل التوازن وتظهر أمراض الانحراف والشذوذ فى المعمورة، فقارات يعمها الجوع والخراب وأخرى تعمها الأمراض بكل أشكالها، والجرائم بكل أنواعها، وتسود المعيشة الضنكة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

وقد يُقنع الغافلون عن ذكر الرحمن أنفسهم بأن ما يحدث ضريبة طبيعيَّة لازمة لا مناص للراغبين فى التمتّع بالمعطيات الحضاريَّة من احتمالها ودفع قيمتها الفادحة. لكنّ ذلك خداع للنفس، وزخرف من القول فالعمران الربّانىّ تحكمه قيم الحق والخير والجمال معًا، فإن وقعت بعض الأعراض الجانبيّة أمكن احتواؤها وتلافى آثارها بتوفيق الله وهدايته؛ لأنّ العمران المهتدى لا ينفك عن « المرجعيَّة الإلهيّة للكون».

إهمال القراءة الثانية

أما إهمال القراءة الثانية فى الكون والطبيعة المسخَّرة، أى إهمال قراءة الوجود والكون والاقتصار على قراءة الوحى وحده منقطعًا منبتًا عن الوجود، فإنَّه يؤدى إلى نفور من الدنيا، واستقذار لها ولما فيها، يشل طاقات الإنسان العمرانيَّة والحضاريَّة، ويعطّله عن أداء مهام الخلافة

والأمانة والعمران، ويحول بينه وبين التمتُّع بنعمة التسخير. ويعطل فكره، وينقص من قيمة فعله، بل قد يلغى إدراكه لفعله فلا يرى الإنسان نفسه فاعلاً فى شىء، ولا يرى لوجوده فى الحياة معنى عمرانيًا، وكل هذه الأفكار منافية تمامًا لمنهج القرآن العظيم.

كما أن تجاوز القراءة الثانية فى الكون وإهمالها، أو عدم جمعها مع الأولى يؤدى إلى ظهور العجز الإنسانى الحضارى، وتعطّل طاقات الإنسان، وإلى خلط عجيب بين قضايا عالم الغيب وعالم الشهادة كما تقدم.

وقد يتوهم المقتصرون على القراءة الأولى - قراءة الوحى منفردًا - أن تنزيه البارئ - جل شأنه - لا يتم إلا إذا ألغيت قيمة الفعل الإنسانى، ونفيت إرادة الإنسان واختياره، واستلب استلابًا لاهوتيًا كهنوتيًا من دوره، واقتنع بأنه مسيَّر فى كل شىء. وبذلك ينتهى دوره الاستخلافى العمرانى، وتستحيل قدراته إلى عجز مطلق. وقد يستغرق فى المحرمات معتذرًا عن ذلك بأنه مسيَّر. وتلك صفة من صفات أهل الشرك.

والناظر فى مقالات الإسلاميّين فى الماضى[11]، وكتب الفرق الإسلامية يجد فى مقالاتهم العجب العجاب فى قضايا الخلط بين الفعل

---

(١١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

الإنساني والفعل الإلهي والإرادة الإنسانية وقضايا الاختيار والعلل والأسباب وسواها، ذلك الخلط الذي أدى إلى كثير من الغبش، والاضطراب في النظام المعرفي الإسلامي.

إذن لا بد من الجمع بين القراءتين: قراءة الوحي، وقراءة الوجود، وبناء العقل الإنساني بهما - معًا - لئلا يقع الإنسان في أي من ذينك الطرفين الذميمين.

منهجية القرآن المعرفية

من هنا كان ما سميناه بـ«منهجية القرآن المعرفية» دعامة أساسية[١٢] للجمع بين القراءتين، وضرورة معرفية وحضارية لا على المستوى الإسلامي وحده، بل على المستوى العالمي - كله- للخروج من المأزق المعرفي المعاصر[١٣] والأزمة الفكرية العالمية المعاصرة.

---

(١٢) نعني بـ «منهجية القرآن المعرفية» المنهج الذي يقدمه لنا القرآن المجيد في شكل محددات وسنن قوانين يمكن استنباطها من استقراء آيات الكتاب الكريم تلاوة وتدبرًا وترتيلاً وتنزيلاً وتفكرًا وتعقلاً وتذكرًا، ثم التعامل مع هذه المحددات تعاملاً يسمح لنا بأن نجعل منها محددات تصديق وهيمنة، وضبط لسائر خطواتنا المعرفيّة، ومنها: تصحيح مسار المنهج العلمي، وإخراج فلسفة العلوم الطبيعية والاجتماعية من مضايق النهايات التي تتوقف عندها الآن. وفي مقدمة هذه المحددات «الجمع بين القراءتين» و«الوحدة البنائية للقرآن» . . . إلخ.

(١٣) الذي يتردى فيه المنهج والمعرفة على حد سواء، فأزمة «المنهج وفلسفة العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية» أصبحت تقض مضاجع العلماء.

فبعد تكريس البعد المنهجي في التفكير واجه الفكر الغربي[14] والحضارة الغربية مشكلة تحديد الصياغة المنهجية لذاتها ومعرفتها صياغة تستند إلى تطور الغرب العلمي بكل جوانبه فلم تصل في ذلك إلى ما يشفي العليل، ويروي الغليل. ولقد قامت الماركسية في محاولة إيجاد هذه الصياغة في إطار «المادية الجدلية». وقد انهارت الماركسية بانهيار الاتحاد السوفيتي قبل أن يجد الغرب البديل المعرفي والمنهجي لها لتبقى الحضارة الغربيَّة دون صياغة فلسفية بديلة، تضبط حركتها، وتستوعب مشكلات تطورها، وتجعلها قادرة على تقديم إجابات عن «الأسئلة النهائية» المعلقة - التي يشيح علماء اليوم بوجوههم عن مراجعتها. فبدأت الحضارة الغربيَّة تلجأ إلى خلق الأزمات لتحافظ على توترها، لأنّه - أي: هذا التوتر - صار من أهم وسائل حمايتها من التفكك.

أما أزمتنا نحن العرب والمسلمين فهي أشد وأنكى، فنحن شركاء في الأزمة العالميّة من ناحية، لأن علاقتنا بها لم تعد علاقة برَّانيَّة أو هامشيَّة - كما قد يتوهم البعض - فالحضارة المعاصرة قد نجحت من خلال غزوها الفكري والثقافي والمؤسَّسي أن تفرض علينا وعلى العالم كله منهجها ووعيها العلمي والمفاهيمي للوجود وللحركة الكونيَّة. كما فرضت على الجميع رؤيتها للتاريخ والعلم والمعرفة والحضارة والثقافة والتقدم

(١٤) فالأزمات الفكرية آلت إلى نوع من الاستفحال لم تعد المناهج البشرية قادرة على معالجته، كما لا يخفى على مراقب لما يجري في العالم المعاصر. وراجع مقدمة «العالمية الإسلامية الثانية» محمد أبو القاسم حاج حمد.

والتخلُّف وغيرها. فما حقيقة «المنهجية القرآنية» التى نقترحها حلاّ لأزمتنا المعرفية والفكرية وأزمة العالم معنا؟

محددات ومعالم

تبرز محددات «منهجية القرآن المعرفية»(*) وتتحقق من قراءة الكتابين: القرآن والكون، وتؤسَّس على مقابلتهما والكشف عن التكامل والتفاعل بينهما، وإبراز المنهجية فى البحث والاكتشاف انطلاقًا منهما:

الكتاب الأول: هو كتاب الوحى المقروء، ونعنى به «القرآن»، لأنه وحده الكتاب الكونىّ، الذى يعادل الوجود الكونىّ وحركته ويستوعبهما بأبعاده الكونية.

والكتاب الثانى: هو كتاب الكون المتحرك الذى يتضمن ظواهر الوجود كافة. فالقرآن العظيم والكون البديع كلاهما يدل على الآخر، ويرشد إليه، ويقود إلى قواعده وسننه، فالقرآن يقود إلى الكون ويمارس دوره فى الهداية فيه، ويوظفه بوجوه كثيرة، لتسخير مكوناته، ولتوضيح قضاياه، وتأييد دعاواه، والكون أيضًا يقود إلى القرآن ليسقط أسئلته

(*) للأخ الراحل محمد أبو القاسم حاج حمد كتابٌ مطبوعٌ يحمل هذا العنوان. وقد اعترض الأخ نصر محمد عارف على إضافة «المعرفيَّة» إلى المنهجيَّة أو وصف «المنهجية بالمعرفيَّة».

عليه، ويستعين به لإرشاد الإنسان إلى كيفية التعامل معه، واستثمار تسخيره. ومعرفة هذا وإدراكه والعمل بمقتضاه هو ما أطلقنا عليه «الجمع بين القراءتين»: قراءة تبدو غيبية تنشأ في إطار الوحي وتنطلق باتجاه الكون. وقراءة موضوعية تنطلق من الكون وعناصره باتجاه الوحي. فقراءة الوحي بمثابة تنزُّل من الكليّ إلى الجزئيّ، فتدرك بقدرما تتيحه القدرات البشريّة النسبيّة من الفهم لتنزلات الكليّ وكيفيّاتها. وقراءة الكون تقدم القضايا والمسائل، والأسئلة الجزئيَّة وترفعها إلى سُدّة الوحي ليهتدي الإنسان القارئ في الاثنين إلى الإجابات السليمة من المصدر الذي يهدي للتي هي أقوم. وتبدو للإنسان القارئ - آنذاك- جدليّة العلاقة بين المصدرين: الوحي والكون أو علاقة« الفهم التكامليّ المتبادل والجدل والتفاعل» بينهما بأوضح ما تكون.

دور قراءة السنة

هنا يبدو دور قراءة السنة والسيرة في كليّتهما ضروريًا مع استحضار أبعاد الهيمنة والتصديق القرآنيَّين مع الاستيعاب والتجاوز، وتكون قراءة الكون بمثابة تطلّع وعروج من الجزئيّ باتجاه الكليّ المتمثِّل بالوحي، وتطبيقات رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - له فيقرأ ذلك كله وفق قدرات البشر النسبيَّة على فهم الظواهر، فلا يقع الفصام المزعوم بين معطيات الوحي ونتائج المعرفة الموضوعيّة، إذا فهمت السنَّة والسيرة فهمًا دقيقًا في هذا الإطار.

وإضافة إلى فهم السنة والسيرة فى كلِّيَّتهما، وجمعهما مع القرآن الكريم فى الطريق إلى «الجمع بين القراءتين»، نحتاج إلى أن ندرك أن . . . القرآن قد نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥] فنزوله كان على القلب.

ولذلك نهى - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يحرك لسانه به بادئ ذى بدء: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٨]. وما ينزل على القلب فإنه ينزل ويراد له الفهم والتدبُّر والاستيعاب والاستقرار فى القلب، ولذلك فإن التالى للقرآن المجيد إذا أراد فهم ما يقرأ، وإدراك معانيه، ومس مراد الحق منه، فعليه أن ينزِّله على قلبه، ويدرك معانيه ببصيرته.

وعلى التالى الذى يريد أن يبلغ فى تلاوته مستوى «حق التلاوة»: أن يدخل إلى رحاب القرآن، وهو على يقين من أنه سوف يجد فيه الجواب الشافى عن كل ما يريد معالجته إذا نزَّله على قلبه وتلاه حق التلاوة، ورتَّله ترتيلاً، وتدبره وتعقله وتفكر بما فيه وتذكره.

ومن قرأ سورة من القرآن، أو نجمًا من نجومه أو آية من آياته فقد فتح لبصيرته نافذة الفرقان على آفاقه الرحبة الواسعة.

أما من قرأه، ووقف معه بكليَّته وفى إطار وحدته البنائيَّة من حيث هو واحد كل أو مجموع كان فى حقه فرقانًا. والفرقان معنى جليل واسع يفرق الإنسان به بين الخير والشر والحق والباطل والصواب والخطأ، فتكون لدى القارئ التالى المتدبر قدرة أو ملكة أو حاسة تمكنه من التمييز فى ذلك - كله - وتقييم أقواله وأفعاله وحركاته وخطراته وأفكاره ونواياه وجل تصرفاته ووزنها بذلك الفرقان. وعندما يحدث للإنسان ذلك يقال له: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك». فالقرآن يكون بمثابة «النموذج المعرفى الكلى» للإنسان القارئ التالى المتدبر للقرآن فى كليته.

وفى هذا الإطار نستطيع أن نفهم تشديد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على أصحابه بألاّ يكتبوا عنه شيئًا إلا القرآن. وتأكيده عليهم: بأن من كتب شيئاً غير القرآن فعليه أن يمحوه.

الجمع[15] بين القراءتين: ومداخل قراءة القرآن

هنا سنحاول أن نمهد لبيان كيفية «الجمع بين القراءتين»، وذلك ببيان

---

(١٥) إنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم- لم يقتصر على الأمر بعدم تدوين الأحاديث والأخبار والسنن، بل جاوز - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك إلى النهى الواضح الصريح عن كتابتها، بل والأمر بمحو ما كتب منها. وكذلك فعل أصحابه من بعده، وبخاصة الشيخان أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - حيث شدّدا فى النهى عن التحديث. ومن جاءهم بحديث فإنهما كانا يصران على أن يأتى بمن يعزز ما روى ويشهد بأنّه سمع ذلك معه من فى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم - مما جعل=

بعض المداخل المهمة لقراءة كل من القرآن والكون، نستعين بها على منهج التعامل مع «الجمع بينهما». ولنبدأ بمداخل قراءة القرآن:

= جمهرة الصحابة يعرضون عن التحديث والرواية. ولذلك فإنّنا نجد كثيراً من الأمور المتكرّرة حين رويت جاءت متنوعة، مختلفة الروايات، مع كثرة تكررها، وإمكان نقلها بالتواتر مثل ألفاظ الأذان والإقامة والبسملة والحيعلة: «حيّ على الصلاة» أو «حيّ على خير العمل». والإقبال الذى حصل بعد الأمر بجمع السنن من عبد العزيز سنة (٨٣) هـ ثم من ابنه عمر بن العزيز- رضى الله عنه- سنة (٩٩) هـ إنما حصل لأن عمر بن عبد العزيز رأى فى جمع السنن ووضعها بين أيدى المسلمين بديلاً عن الاختلاف فى الفقه، فإن عنصر الإلزام بالمروى عنه عليه الصلاة والسلام أقوى من الالتزام بفقه الفقهاء. وذلك أكثر تأثيراً فى جمع الكلمة، وتقليل الاختلاف. فهى لم تجمع لتكون بديلاً عن القرآن بل لتكون «فقهًا نبويًا» بديلاً عن فقه الفقهاء.
أما لماذا نهى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم - عن تدوين أى شيء غير القرآن، وتبعه صاحباه الشيخان فى ذلك، فذلك لكى يبنى عقول الناس ونفوسهم وقلوبهم أولاً بالقرآن-وحده- فيصبح القرآن مستقرًا فيها، عنه تنبثق نماذجهم المعرفيّة، ومنه ينطلقون فى بناء مناهجهم العلميّة، فيصبحون قادرين على قياس كل مصدر كليّ أو جزئيّ، وكل نوع من أنواع المعرفة إليه، ومحاكمته إلى الرؤية القرآنيّة ونقده وتنقيته بمقتضاها وفقًا لها. إضافة إلى تقرير وترسيخ «حاكميّة القرآن» فى قلوبهم وعقولهم. ولم يكن السبب ما ذكره البعض من «خوف الاشتباه والتداخل بين القرآن والأحاديث المروية»، فذلك أمر مستبعد جدًا أن يقع فيه العرب وهم أهل البلاغة والفصاحة الذين يدركون الفجوة الواسعة بين آيات الكتاب الكريم وأى شيء سواه بما فى ذلك أحاديث أفصح من نطق بالضاد عليه الصلاة والسلام- ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم- لا ينطق عن الهوى، فما دام قد فعل ذلك ونهى عن كتابة غير القرآن، فذلك يعنى أنه لم يفعل ذلك إلا لحكمة بالغة علمها الله، وأوحاها إليه - صلى الله عليه وآله وسلّم - أو توقيف مباشر، وإلا فالعرب لا يخفى عليهم الفرق بين اللفظ القرآنى وسواه، مهما كانت درجة بلاغته وفصاحته.
كما أنّ القرآن المجيد يحوى أصول السنن، وتستدعى آياته السنن ولا عكس. وقد نص الإمام الشافعى على ذلك بقوله: «فى الفقرة ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، =

١ـ **إن تنزيل القارئ للقرآن على قلبه** -بالشكل الذى أوضحنا - مدخل أساسى من مداخل فهمه، والفقه فيه. ولعله أهم مداخل «الجمع بين القراءتين» فالله -تبارك وتعالى- قال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٤]. وهناك مداخل أخرى للدخول إلى عالم القرآن المجيد، منها:

= وفى ٤٨» توج ما قاله فى تلك الفقرات بقوله: فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها. (مقدمة الرسالة ١٧-٢٠).

كما أن العلماء بعد الأجيال الثلاثة قد تساهلوا، خاصة فى «جيل الرواية» بنقل السنن بالمعنى، لأن القرآن يصدق عليها ويهيمن مثل تصديقه وهيمنته على تراث النبيين من قبل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم- كافة، فليس هناك كبير خوف من تصرف بعض الرواة بالألفاظ ونقلها بمقتضى فهمهم لها، فإن وراءها مصفاتين دقيقتين: أولاهما: أن يكون للمروى أصل فى القرآن وفى اللغة. والثانية: أن تكون مما يصدّق القرآن عليه ويهيمن، وبذلك يمكن تصحيح ما قد يخطئ فيه فهم الراوى، سواء أكان ذلك بسبب مستوى قدرته على الفهم والاستيعاب، أم بسبب لغوىّ، أم بسبب القراءة لمعانى الحديث وأسباب وروده أم أى مؤثر آخر.

والكتابة وسيلة توثيق دقيقة (ولا شك ولا يضير العرب الذين فضلوا المحفوظ على المقروء ذلك)، وهى أدق من الحفظ فى الذاكرة وإذا طرأ على الكتابة تصحيف أو ما إليه، فذلك مما يمكن تداركه وتصحيحه، وليس كذلك الخطأ فى الذاكرة إذا استقر، وجرى تداوله شفاهًا.

وهذا الذى نقوله يوضح أن النهى النبوى عن كتابة السنن لم يكن لبيان عدم حجيّتها كما يذهب إلى ذلك المستشرقون والمنازعون فى الاحتجاج بالسنن، ومنهم أولئك الذين يطلقون على أنفسهم لقبًا لا يستحقونه فيسمون أنفسهم «بالقرآنيين»، وما هم «بقرآنيّين» فلو أنهم كانوا «قرآنيّين» لما وسعهم نفى «حجيّة السنّة» الثابتة بصريح القرآن المجيد. ولأدركوا أن النزاع الذى نشب فى جيل الرواية واشتد فى جيل الفقه لم يكن نزاعاً فى «ذات الحجيّة»، إذ الحجية أمر معلوم من الدين بالضرورة، ولكن النزاع وقع فى حجية=

٢ـ مدخل الإيمان «بالوحدة البنائيَّة للقرآن المجيد»، وقراءته مع استصحاب هذا المدخل. والوحدة البنائية تجعل التالى المرتل المتدبر

= «الإخبار بالسنَّة» الذى هو الإسناد، «فالإخبار بالسنة» هو ما يمكن أن يوصف بالقطع والظن، والحجيَّة وعدمها، ويرد- بمقتضى الحكم عليه وبنقد المتن - الحديث أو يقبل. أما السنّة الثابت صدورها عنه - صلى الله عليه وآله وسلم- فلا نزاع فى حجيتها بين المؤمنين.

كما أن ما قررناه مستفاد من المنهج الذى نزل القرآن الكريم به، حيث تنزل القرآن - كما هو معروف - نجومًا استغرق نزولها اثنين وعشرين عامًا وخمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا من حياة رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم -، وقال جل شأنه فى ذلك: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقد اعترض المشركون على هذا المنهج فى التنزيل، وسجل القرآن اعتراضهم على هذا، وناقشهم فيه وبين الحكمة التي خفيت عليهم فى تنزيله بذلك المنهج، فقال جل شأنه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. وللحكمة ذاتها: -تثبيت الأفئدة بالقرآن- أراد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم- أن تنشغل عقول وقلوب المسلمين بالقرآن وحده - حتى تثبت به عقولهم وقلوبهم، وتستقر به نفوسهم، وتخالط بشاشته أفئدتهم وضمائرهم، ولا يزاحم آياته فى انفعالهم به أى شىء آخر. وبذلك كان القرآن لذلك الرعيل عقلاً يفكرون به، ونفسًا يحيون بها، ووجدانًا تتشكل به عواطفهم ومشاعرهم، وأعينًا يبصرون بها كل ما حولهم، ومنهجًا ضابطًا لحركات العقول والنفوس والتصرفات يعصم الإنسان عن الوقوع فى الخطإ فيها، وإذا مس الشيطان شيئًا من ذلك تذكروا فإذا هم مبصرون للحقيقة أو لوجه الصواب فيها. والأحاديث والآثار التى وردت فى النهى عن كتابة السنن ومناقشتها من وجهة نظر الأشاعرة تجدها فى كتاب شيخنا عبد الغنى عبد الخالق «حجية السنّة» (٣٩٠ وما بعدها) وكذلك فى كتاب د. محمد عجّاج الخطيب «السنّة قبل التدوين» طبع مكتبة وهبة للطباعة والنشر فى القاهرة/ الطبعة الرابعة/ ١٤٢٥ هـ-٢٠٠٤/ الباب الرابع من الكتاب «متى دون الحديث»؟ (ص٢٩٣-٣٨١) حيث جمع المؤلف- جزاه الله خيراً- ما يتعلق بالتدوين وناقش مختلف الآراء والأقوال الواردة فى ذلك. وقد نتفق مع المؤلف فى جل ما تناوله وقد نختلف فى بعض الاستنتاجات معه، لكن يبقى ما أورده مما لا يستغنى الباحثون فى هذا المجال عنه.

يطوف فى رحاب القرآن ناظراً فى آياته - كلها - باحثًا عن جميع الروابط وشبكات العلاقات بينها ليدرك ما يقرأ، ويفهم ما يتلو[١٦].

٣ـ مدخل الانطلاق من الإيمان «بوحدة السورة»، وهو مدخل لا يختلف كثيراً عن مدخل «الوحدة البنائية»، لكن التركيز فيه يكون على سورة واحدة يتخذها القارئ المتدرب بمثابة وحدة متميزة. وهنا ينطلق فى تدبُّره باتجاه البحث عن عمودها، والأعمدة أو الأوتاد الساندة. ونعنى بذلك: أن لكل سورة موضوعًا أساسيًا تأتى آياتها - كلها - لتوضيحه وبيانه، وتجلية ما يتعلق به. وتكون الموضوعات الأخرى دائرة حول ذلك الموضوع الأساسى تعززه، وتزيد فى بيانه وتوضيحه، فتكون بمثابة الأوتاد المساندة لعمود البيت ودعامته الكبرى. وقد كتب فيه «الإصلاحى»[١٧] دراسة جيدة تحتاج إلى من يبنى عليها، ويتوسع فيها ونبه إلى ذلك الشيخ أمين الخولى[١٨].

---

(١٦) لمعرفة تفاصيل المراد «بالوحدة البنائيَّة»، وكيفية استعمالها بحسبانها محدداً منهاجيًا ونشأتها وسيرورتها أفردناها بدراسة مستقلة يستحسن الرجوع إليها لفهم هذا المدخل بشكل مناسب وقد نشرت ملخصه فى مجلة الكلمة عدد (٤٣) ربيع (٢٠٠٤).

(١٧) راجع كتب الأستاذ عبد الحميد الفراهى الإصلاحى يرحمه الله سلسلة دراسات فى التأويل وعلوم القرآن، منها حلقة خصصها للحديث عن «عمود السورة» أكد فيها: أنّ كل سورة لها عمود لابد للقارئ المتدبِّر من الكشف عنه ليدرك معانيها، وما اشتملت عليه من موضوعات. وقد نشرت هذه الدراسات المكتبة الإصلاحية فى عليكر فى الهند. وأعادت نشر بعضها «دار الغرب الإسلامى».

(١٨) على ما فى «مسئولية التأويل»: ص ١٣٩ وما بعدها للدكتور مصطفى ناصف. =

٤ـ **مدخل القيم العليا**، وهى: «**التوحيد والتزكية والعمران**»، فهذه القيم الثلاث بلغت من الأهمية مستوى يمكن من القول بأنها محاور القرآن المجيد الأساسية التى تدور سوره وآياته وكلماته - كلها - حولها وتشترك فى العمل على تكريسها وتعزيزها.

فالتوحيد حق الله ـ تعالى ـ على عباده أن يؤمنوا بواحديَّته ووحدانيَّته، وتفرده فى ذاته وصفاته وأفعاله. ومعظم سور القرآن وجل آياته دارت حول التوحيد لأهميَّته القصوى، إذ عليه يتوقف كل ما عداه. فهو جوهر العقيدة، وركن الإيمان وعموده.

ثم «**التزكية**» - وهى المؤهل الأساسى والشامل الذى يجعل الإنسان قادرًا على القيام بمهام الاستخلاف، وأداء الأمانة والوفاء بعهده تعالى - وإعمار الأرض ووراثتها فى الدنيا **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾** [الأنبياء: ١٠٥] وهى التى تهيئ الإنسان لوراثة الفردوس فى الآخرة: **﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾** [المؤمنون: ١١].

ثم «**العمران**» - وهو المهمة التى أوكلت للإنسان بعهد الاستخلاف، وهو الغاية التى سخر الله الطبيعة - كلها - للإنسان من أجل تحقيقها،

= القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٢٥ هـ ٢٠٠٤م. وقد أحسن تناول هذا النوع وأتقنه كلٌّ من الشيخ الراحل محمد عبد الله دراز فى كتابه «النبأ العظيم» ود. منى أبو الفضل فى كتابها «نحو منهاجيَّة للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامى».

والقيام بحقها. ونحن نستمد من سنن الكون وقوانينه ومنها التسخير والعمران ونستقى كثيراً من الأدلة على وجود الله - تبارك وتعالى - ووحدانيَّته فى ذاته وصفاته وأفعاله. وبتدبُّر تلك السنن والقوانين نستنبط ما يتناسب والفطرة التى فطرنا الله - تعالى - عليها فنبنى من أدلة «الخلق والإبداع والرعاية والتدبير والتمانع وما إليها» ما يجعلنا قادرين على الاستجابة لنداء الفطرة التى فطرنا عليها، والاستماع والاستجابة إلى نداءات ودعوات المرسلين، فيتظافر القرآن والرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ومعه سائر المرسلين من خارج، والفطرة الإنسانية من داخل لتحقيق الهداية والتزكية، وبناء العمران الذى هو انعكاس للهداية والتزكية وروح العبادة على الكون والطبيعة المسخرة. وبذلك يتحول الإنسان إلى قائد لمسيرة التسبيح التى يمارسها كل شىء فى الكون بالتوجيه التلقائى والذاتىّ عدا الإنسان الذى يمارس ذلك بحريَّته واختياره. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [الإسراء: ٤٤].

فكيف نفقه ذلك التسبيح؟ نفقهه بالتدبُّر والتفكر والتعقل والتذكر فى خلق السماوات والأرض﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾

[الأنعام: ٣٨].

وحين نمارس قراءة القرآن بهذه المداخل سوف تقودنا بشكل مباشر

إلى النظر إلى ما خلفها وما ترتبط به ليظهر لنا المدخل الخامس من مداخل القراءة.

٥ ـ وهو مدخل الولوج إلى رحاب القرآن **بمدخل العلاقات بين الله ـ تبارك وتعالى ـ والإنسان والكون المسخر**. فحين نقول: «**الله**» فإننا نستحضر بذلك علم الغيب كلّه. وحين نقول: «الإنسان» فإننا ننبّه بذلك إلى كل ما يتعلق به ابتداءً من «عالم العهد الأول، أو عالم الذر» مروراً بعالم الخلق والإبراز للوجود والأمر بالتصدى للمهمة، وانتهاءً بعالم المآل إلى الجنة أو النار. وحين نقول: «**الكون**» فإنّنا نعنى به عالم الخلق أو الأشياء والسنن والقوانين الموجهة، والمسيِّرة له، وتنوع الخلق فيه: من حيوان وبحار وأنهار وشمس وقمر وموجودات ومنها الإنسان نفسه. وذلك يعنى: أنَّنا نبحث عن العلاقات بين الله - تعالى - والإنسان والكون، وكيفية حدوث الفعل والانفعال أو ما يسمى «بالتفاعل» فى كل ما قصه الله - تبارك وتعالى - فى القرآن المجيد، فنكتسب بذلك وعيًا وقدرة نتمكن بهما من تدبُّر القرآن وتلاوته وترتيله، لنتعقل به أوضاعنا، وما نعايشه فى مرحلتنا التى لا تعدو أن تكون حلقة من حلقات تاريخ أسرتنا البشرية الممتدة. ومدخل القيم العليا والعلاقات بين الخالق والمخلوق سوف يكونان خير رفيق لنا فى الطواف فى آيات القرآن المجيد. والله أعلم.

٦ـ المدخل السادس ـ **مدخل «التصنيف الموضوعى»**، وذلك بعد أن نداوم على قراءة القرآن، ونتدبر أهم الموضوعات التفصيلية التى تناولها،

ونمرن أنفسنا على تحديد موضوعات مثل «الإيمان والكفر والشرك والنفاق والحق والباطل والصلاة والعلم والإصلاح والإفساد وما إليها».

ثم نبدأ ـ بعد القراءآت الكاملة ـ بجمع الآيات التى تتعلق – فى نظرنا – بذلك الموضوع، باستقرائها وتتبعها فى آيات القرآن – كلها – دون غفلة عن «وحدة القرآن البنائيّة» التى تستلزم أن نستحضر القرآن – كلّه – فى دراسة أى موضوع؛ ثم نبدأ عمليات التدبُّر والتأمّل، ونحذف ونضيف إلى أن نطمئن إلى أن ما جمعناه من الآيات هو كل ما يتعلق بذلك الموضوع. على ألاّ نتوقف عن التأمل والتدبر فيها والحذف والإضافة: فبعد فترة سنجد أنفسنا مشدودين إلى القرآن – كله – فى كليته ووحدته البنائية، فيزداد فهمنا ووعينا بالقرآن المجيد عمومًا. وهنا يمكن أن نستشهد بما نقل عن الإمام الشافعى – يرحمه الله – فقد عمل الشافعى على جمع آيات الأحكام فى القرآن المجيد، وله كتاب يحمل اسم «أحكام القرآن» جمعه البيهقى. وآيات الأحكام معدودة لدى الفقهاء فهى فى تقديرات جمهرتهم لا تتجاوز خمسمائة آية، وبعضهم لا يجاوزون بها أربعين ومائتى آية.

لكن الإمام الشافعى بعد أن ركز على هذا النوع من الآيات وجد أن من المتعذر حصر الأحكام فيها. فأشار إلى أن فى الأمثال أحكامًا كثيرة. بل يمكن القول[١٩]: إن فى القصص القرآنى أحكامًا، فالحكم لا تستطيع

(١٩) تشتمل الأمثال القرآنيَّة على أحكام وتشريعات، كما تشتمل على خلاصات التجارب والخبرات. وإن جاءت على غير ما عهد فى آيات الأحكام والتشريع من أساليب، =

استنباطه، والإلمام بجوانبه كلها بدون معرفة سياقه وعلاقاته - كلها. وقد نبهنا إلى تفاصيل مفيدة إن شاء الله في بحثنا في «الوحدة البنائية للقرآن المجيد». فارجع إليها فيه واربط بين ذلك وهذا المدخل.

٧ـ المدخل السابع - **مدخل البحث في المناسبات**. والمناسبات أو التناسب بين الآيات والسور علم دقيق ومهم حاوله كثير من المتقدمين فقاربه بعضهم، وأعلن بعضهم العجز عنه، فتجاوزه إلى المداخل الأيسر.

ويقول الإمام الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) «... من تأمل لطائف نظم السور، وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه

= ولهذا فقد عد الإمام الشافعيّ الأمثال القرآنيَّة مما يجب على المجتهد معرفته، فقال - وهو يبيِّن مؤهّلات المجتهد العلميَّة «... ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته، المثبتة لاجتناب معصيته ...» فجعلها بذلك جزءاً مما يجب على المجتهد معرفته من «علوم القرآن» كما في الإتقان (٢/ ١٣١). وذكر الماورديّ «... أن من أعظم علم القرآن علم أمثاله والناس في غفلة عنه ...» على ما في البرهان للزركشي (١/ ٤٨٦) والإتقان (٢/ ١٣١).

ونقل السيوطي عن الشيخ عزّ الدين قوله: «إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظًا، فما اشتمل منها على تفاوت في الثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح، أو ذم، أو نحوه، فإنّه يدلُّ على الأحكام» (الإتقان: ٢/ ١٣١).

وقال ابن خلاّد الرامهرمزي: «.. أمثال التنزيل التي وعد الله - عزّ وجلّ - بها وأوعد وأحل وحرّم، ورجّى وخوف، وقرع بها المشركين، وجعلها موعظة وتذكيراً، ودلّ على قدرته مشاهدةً وعيانًا، وعاجلاً وآجلاً، ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ..»، على ما في مقدمة أمثال الحديث للرامهرمزي، وراجع الأمثال في القرآن الكريم/ لأخينا الراحل د. محمد جابر الفياض. - ص ٢٦٦.

وشرف معانيه، فهو - أيضًا - معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته . . . ».
ويقول - أيضًا - : «أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط[20] . . . ».

ويقول القاضى أبو بكر بن العربىّ من علماء القرن الخامس (ت: ٥٤٣): « . . . ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعانى، منتظمة المبانى علم عظيم . . . »[21].

ويقول برهان الدين البقاعى صاحب أشهر كتاب فى الموضوع «نظم الدرر فى بيان تناسب الآيات والسور»: «إن السورة وإن تعددت قضاياها فى كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض فى القضية الواحدة. ولا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر فى جميعها، كما لا غنى عن ذلك فى أجزاء القضية الواحدة . . . » يريد القضية المنطقية وهى عبارة عن جملة واحدة.

فحين نعمد إلى القراءة المتدبرة بهذا المدخل فإن من الممكن التدرب عليه بأن نأخذ سورة من تلك السور التى تعددت نجومها، وتنوعت موضوعاتها، وكثرت معانيها. ثم نتتبع آياتها آية بعد آية، ومجموعة بعد أخرى ثم نتفكر فى بدايتها ومسيرتها وانسيابها حتى نبلغ خاتمتها. ونعود

(٢٠) راجع «الوحدة البنائية» مصدر سابق.
(٢١) المرجع نفسه.

من الخاتمة إلى البداية، وننظر فى العلاقات بين اسمها وتسويرها لتكون سورة مستقلة، ثم علاقتها بما قبلها وما بعدها فسنكتشف شبكة من العلاقات بينها تجعلنا نشعر أنها نزلت حين نزلت، وكأنها نجم واحد، أو أنها نزلت مرة واحدة.

هذه المداخل هى مداخل مقترحة تمثِّل حصيلة معايشة للقرآن، ومحاولة للاقتراب منه - وليست - بحال من الأحوال - نهاية المداخل المطلوبة لمقاربة القرآن المجيد، وهى قابلة للإنماء والإضافة، فالقرآن لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد.

* * *

مداخل قراءة الكون

للكون مداخل للقراءة، كما كان للوحى مداخل للقراءة. ومداخل «قراءة الكون» متعددة كذلك، منها:

* مدخل الخلق

هذا المدخل يقتضى الإيمان التام واليقين الخالص بأن الكون - كلَّه - مخلوق لله - تعالى - عن إرادته صدر، وبكلماته تكوَّن، وبتقديره تشيّأ: فصار شيئًا مذكوراً.

وأنَّه - سبحانه - ما خلقه إلا بالحق، وأن كل شىء فيه بقدر ومقدار، وتقدير محدَّد، وأنه سائر إلى غاية معيَّنة، فلا مجال للقول بالمصادفة أو

العبث أو العدم أو اللاغاية!! وأنَّ كل شيء فيه له علة، كما أنَّ له غاية. والقيام بمهمة الاستخلاف، والوفاء بالعهد الإلهى، والقيام بحق الأمانة، والنجاح فى اختبار الابتلاء، والخروج من عهدة التكليف، كل أولئك أمور يتوقف القيام بها على إدراك هذه الأمور، والوعى بها وعيًا يجعل منها آيات للحق - تبارك وتعالى - موصِّلة إليه، منبِّهة إلى صفات الكمال التى يتصف بها، موجهة للإيمان به، وإدراك عظمته، وفهم حسن تدبيره وحكمته وإعجاز تقديره.

والقرآن المجيد - وهو يدعونا للنظر فى الخلق والطبيعة - لا يرشح نفسه مصدراً للعلم الطبيعى، ولكنه يوجه إلى ذلك للأخذ بيد الإنسان للوصول إلى معرفة الخالق وإدراك وحدانيّته، واليقين باتصافه بكل صفات الكمال، وتنزُّهه عن كل صفات النقصان، وفى ذلك - كله - بناء لطاقات الإنسان الإدراكية وقابليّاته العقلية والفكرية، واستعداداته المعرفية، وتحريك لسائر قوى الوعى فيه، وتأهيله للمهام الكبرى التى أوكلت إليه. وإذا كان الوحى يعينه على تحقيق التزكية بكونها ذات أولوية كبرى بعد التوحيد وبه ومعه، فإن النظر فى الخلق والطبيعة يعينه على كسب الأهليَّة لتحقيق العمران، والنظر فى الخلق والطبيعة، وهى مسخرة خاضعة لله - تعالى - وبسننه وقوانينه تتحرك أو يتشكَّل كل شيء فيها فليس الإنسان خاضعًا لها، وليس له أن يغتر بتسخيرها له فيستكبر، ويقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

[القصص: ٧٨]، أو يحسب نفسه مقهوراً لها فيشرك، أو قاهراً لها بنفسه فيلحد، ولكنه يراها مسخَّرة لله خاضعة له. وأن ربه وربها واحد أوكل إلى هذا الإنسان مهمة الخلافة فيها، واستثمارها وإعمارها.

ولهذا المدخل المهم مداخل فرعية يرشد الوحي إليها، منها:

معرفة مبدإ الخلق، وكيفية تكوين الموجودات وأهم وظائفها: **﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾** [الأنبياء: ٣٠]. **﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾** [نوح: ١٥، ١٦] كما يربط بينه وبينها: **﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾** [نوح: ١٧، ١٨]. وهذا المدخل يؤدى - أيضاً - إلى كشف النظام الدقيق للكون وغائيَّة الخلق: **﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾** [الأنعام: ٧٣].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧].

والإنسان مطالب بأن يتفكَّر فى خلق السماوات والأرض ليدرك ذلك - كلَّه - ويكشف عمّا فى الكون والخلق من دقّة ونظام، وسنن حاكمة، وغايات وعلَل ويتبيَّن وحدانية الله - تعالى - ويبنى تصوراته عن الكون والحياة والإنسان انطلاقًا من ذلك، فيتمكن من تحقيق العمران، وإلاّ

كانت الحياة الدنيا بالنسبة إليه لهواً ولعبًا، وعبثًا يتنزه الخالق عنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

كما يكتشف الإنسان بتدبُّر هذا المدخل أنَّ هذا النظام الدقيق المحكم لا يعنى أن الخلق خالد، أو أنه مستمر دائم لا نهاية له، بل هو محكوم بأجل مسمى، فدقة نظامه، والبدائع التى اشتمل عليها، واتساعه وعظمته لن تمنحه صفة الخلود. ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

وكونه سائراً إلى نهاية وأجل مسمّى لا يزيل عنه صفة الحق، الذى خُلق به وقام عليه. ولأنّ الإنسان جزء من الخلق وابن شرعىٌّ للطبيعة فلا ينبغى له أن يغفل عن أنه يجرى عليه ما يجرى عليها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٦، ٥٧]. وهم إن علموا شيئًا وهم فى حالة كفر بالوحى أو انفصال عنه فإنما﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[الروم: ٧].

والتفكر فى هذا المدخل وتدبُّره بعناية يؤدّى بالإنسان كذلك - إلى إدراك ذلك التلازم العجيب الذى أوجده الخالق، البارئ، المصور - جل شأنه وعزّت قدرته - بين العلم والإيمان. وأن العلم حين ينفصل عن

الإيمان قد يفقد صفة «العلم» وقد يكون ضرره أكبر من نفعه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

لقد عمل القرآن المجيد على بناء أمتن وأقوى وأفضل العلاقات بين الإنسان والعالم المخلوق لله، والمسخر له لئلاّ يقع بينهما تنابذ أو تصارع، أو علاقات مضطربة فتضيع حكم كثيرة قد لا تؤثر فى تسخير الطبيعة أو الكون الخاضع لسنن لا تبديلَ لها، ولكنّها تحرم الإنسان من تلك المشاعر السامية - فى الحد الأدنى - وهى المشاعر التى تجعله يحسّ بحبٍّ واحترام بيئته، وما فيها ومن فيها فيحقق السلام النفسى والذاتىّ، ويحقق السلام مع كل ما حوله ويدرك قدر نعم الله التى لا تحصى عليه حين سخَّر له كل ما حوله، وعلّمه كيف يستفيد به، ويستخلف فيه ويعمره، ويقيم الحق والعدل فيه، ويقوده فى قافلة العبادة والتسبيح للذى خلق سبحانه.

فالإنسان لا يحتاج لقهر الطبيعة والخلق، وكيف يحتاج لذلك والكلّ مسخَّر له بتسخير الله تعالى، وهو الذى مكّنه من ذلك - كلّه- ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية: ١٣].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، فالإنسان مطالب باستثمار ذلك كله والاستفادة به،

وإن هو لم يفعل فإنه يكون قد أخلّ بوظيفته فى الكون، فالعمران من العبادة وأىّ جزء من أجزاء الطبيعة يُهمَل، فذلك يعنى أنه ميّت أو مقتول. ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]. ولذلك وضع الفقهاء بابًا فى الفقه أطلقوا عليه «إحياء الموات» أى الأراضى المهملة التى لا تزرع ولا يبنى عليها، ولا تستثمر.

وإن القرآن المجيد قد أقام هذه العلاقات الوديّة بين الإنسان وعناصر الكون كلّها - ولم يقصر ذلك على البيئة المحيطة به - وحدها - أو البيئة المباشرة، بل تعدّى ذلك إلى الشمس والقمر والنجوم ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[نوح: ١٦]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

[الأنعام: ٩٧].

والقرآن ينبّه هذا الإنسان المستخلَفَ المسئول عن العمران، والتعبُّد لله - تعالى- به إلى أنّ عليه أن يستعمل سائر إمكاناته الذاتية، والطاقات التى زوّده الله - تعالى - بها لبناء علاقاته بالكون بالشكل المناسب: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فالإنسان فى حاجة ماسّة وضرورية إلى هذه الأدوات والقوى. ولكى يشحذ هذه القوى، ويضاعف طاقاتها، هو فى حاجة إلى النظر فى الأرض والكون فيكون النفع بينهما متبادلاً فالنظر والمشاهدة والتدبر والتفكر والتعقل تُمكّن

الإنسان من حسن استثمار الكون، وتنمّى طاقاته. ونظره فى الكون يعود على هذه الوسائل والأدوات بطاقات مضاعفة. وتعطيلها عن ذلك يصيبها بالكسل والفتور، أو يؤدى بها إلى الانحراف.

* مدخل العناية

هذا المدخل من مداخل قراءة الكون لا يبعد كثيراً عن «مدخل الخلق»، وإذا كان مدخل الخلق يقودنا إلى النظر فى الخلق كيف «بدأ الله الخلق»، وإدراك الغاية منه وسيرورته وما سينتهى إليه: فإن مدخل «العناية» يؤدى بنا إلى النظر فى نظام الكون الدقيق، واكتشاف بدائع الصنع الإلهى فيه، والقوانين والسنن التى لا تبديل لها، ويوضّح فى الوقت نفسه الرعاية الإلهية للإنسان بهذه العناية. وهذا النوع من النظر يربّى فى الإنسان العقل، ويدرّبه على النظر العقلىّ فى كل ما حوله، ويعلمه كيف يدرك المقاصد والكليّات، والحكم والغايات من مداركها وبوسائلها، فيؤمن بربه، ويثق فى نفسه. ويدرك أن الكون ليس مركبًا من عناصر مشتّتة، أو أجزاء منفصلة، بل يراها فى ترابطها الدقيق، وانتظامها المتماسك. فذلك هو الذى يعود على الإنسان «بالرؤية الكلية» للكون والإنسان والحياة. ولقد أجهد الفلاسفة ومؤسّسو المدارس الفلسفية أنفسهم عبر التاريخ، وما يزال الكثيرون منهم يسعون إلى معرفة المنهج، أو الكيفية التى يمكن بمقتضاها إرجاع سائر عناصر الكون إلى أصل واحد. والوصول إلى منهج أو نظام معرفىّ أو نموذج معرفىّ يمكّن من تفسير الظواهر الكونيّة والطبيعيّة به بشكل عام شامل. إذ لا شك فى أن كثيراً من الظواهر

الطبيعيَّة ما يزال العلماء الماديُّون - بخاصَّة - يتخبَّطون فى تفسيرها، ويقلّبون أفئدتهم وأبصارهم فيها، فلا تعود عليهم بالكثير. ولعل السبب الأول لذلك يكمن فى عدم التفات هؤلاء العلماء الماديِّين إلى ما وراء تلك الظواهر من نظام دقيق، وعناية إلهية فائقة، فتنحصر أنظارهم فى الظواهر الحسيَّة التى تجعلهم مقيَّدين «بالجدل بين عناصر الطبيعة الماديَّة». أما لطف التدبير، ووحدة نظامه، فإنه لا يُدركُ إذا لم يؤمن العالَم الباحث بوجود المدبِّر الواحد، وعنايته وحكمته، ومطلق قدرته، فذلك هو الذى يعصم الباحث من التيه، والوقوع فى الخطإ.

مثل من القرآن

ويضرب الله - تبارك وتعالى - للبشرية مثلاً بأبى الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - حيث نظر فى مجموعة من الظواهر والموجودات الكونيَّة باحثاً متأملا ليحدد موقع كل من تلك الظواهر منه من ناحية، ويحدِّد لنفسه موقفًا منها يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦، ٧٩]. فسيدنا إبراهيم كانت لديه «إشكالية أو أزمة» برزت وهو يشاهد قومه يعبدون أصنامًا لهم يصنعها أبوه، ويبيعها عليهم، فأراد لتلك الأزمة المؤرقة حلا. توجه بالسؤال إلى أبيه «آزر» صانع الأصنام فقال له ولقومه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٤]. فلم يكن لديهم جواب شاف أو مقنع غير الحجة المفلوجة المكررة التى لا تقنع أحدًا - تقليد الآباء - ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[الشعراء: ٧٤] وهنا يتجه إبراهيم - بتوفيق من الله إلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض ليقوده إلى الدواء الشافى من تلك الأزمة - الإشكاليَّة.

لقد جزَّأ إبراهيم سؤال الأزمة لديه إلى أجزاء كثيرة أو أسئلة فرعيَّة متعدِّدة. ففى الكواكب نظر فى ظاهرتى الأفول - الغياب والنقص - بعد البزوغ، والإشعاع بالنور، وأدرك أن الأفول والنقص والغياب لا يمكن أن يتصف الإله بشىء منها، إذ كيف يدبِّر مخلوقاته وهو بهذه الصفات؟ ومن ذا الذى يقوم بالعناية بها إذا غاب؟ فكانت تلك أسئلته فى ملكوت السماوات حتى إذا التفت إلى ملكوت الأرض ساءل قومه وأباه بعد توجيه سؤاله الأساسىّ والمحورىّ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ

يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

[الشعراء: ٦٩ - ٨٩].

هنا وبعد أن أجهد نفسه فى النظر العقلى فى ملكوت السماوات والأرض ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] تبرأ من آلهة أبيه وقومه - كلها - ووجَّه وجهه للذى فطر السماوات والأرض مائلا عن كل ما كان متوافراً من الأديان إلى «الإسلام» فأسلم وجهه لله رب العالمين، فبلغ بذلك توحيد الألوهيَّة وتوحيد الربوبيَّة. ومدخل العناية إن عرفه الباحثون حق المعرفة، وتبَّينوا معالم النظام البديع المعجز الذى يسيِّر الله - تعالى - الكون بمقتضاه، فإنَّ ذلك سوف يوجد فيهم أقوى الدوافع للبحث الجاد المتواصل للكشف عن الكون، والبحث فى الطبيعة، وبلوغ العلاقات والقوانين التى يقوم عليها النظام الكونىُّ.

والباحث المؤمن حين يعجز عن اكتشاف حلقة من حلقات ذلك النظام فى ظاهرة من الظواهر فإنه لن يتهم المنهج العلمى الذى استخدمه، ولن ينفى وجود النظام لمجرد أنّه لم يضع يده عليه فى تلك الظاهرة، فهو يدرك أن «عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود»، ولذلك فإن الباحث المؤمن سوف يعاود البحث مرة أخرى، وثانية وثالثة، وينسب القصور إلى نفسه، أو طريقته فى استعمال المنهج. ولن يلجأ إلى القول بالاحتماليَّة، أو المصادفة، أو نفى النظام. كما يحدث لبعض العلماء اليوم.

*** مدخل النظر فى الواقع الموضوعى الخارجى**

إن للأشياء وجودًا ذهنيّا ووجودًا واقعيّا، فالوجود الذهنىُّ عبارة عن تلك الصور الذهنيَّة التى ترسمها المخيِّلة الإنسانيَّة للأشياء، فإذا خرجنا بها إلى الواقع فإما أن نجده مطابقًا لما ارتسم فى أذهاننا. فيصدق الواقع الخارجىُّ «الصورة الذهنيَّة»، فيتضح لنا آنذاك - أن لتلك الصورة الذهنية تحققًّا عينيًا. ولو أنَّ الواقع الخارجىَّ لم يصادق على تلك الصورة الذهنيَّة، فذلك يعنى أن تلك الصورة غير دقيقة، أو هى مجرد صورة متخيَّلة لا سند لها من الواقع. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[العنكبوت: ٢٠].

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فقضية الجمع بين القراءتين مسألة منهجية فى المعرفة وتقود إلى نتيجة حضارية، فالذى يجمع بين القراءتين لا يستغنى عن الله لأنه يدرك دومًا افتقاره لله - سبحانه وتعالى فلا يستبد ولا يبتغى علوًا فى الأرض ولا فسادًا ولا يطغى، ولا يلحد ولا يدمر الحياة والأحياء، ولا يعيث فى الأرض فسادًا.

كيفية الجمع بين القراءتين

إن المدخل الأساسى للجمع بين القراءتين يبدأ باكتشاف العلاقة المنهجية بين الناظم المنهجى لآيات القرآن الذى أعطى القرآن «وحدته البنائية» وإعجاز «نظمه»، وبين السنن والقوانين المبثوثة فى الوجود، والمهيمنة على حركته للكشف عن الناظم المنهجى الذى يربط بينهما. فالقرآن وحى إلهىٌ نتعقل به ونتفهم به هذا الوجود انطلاقًا من أن القرآن مطلق، ومحيط وشامل. وبقدر ما تتسع معرفتنا للاثنين معًا بقدر ما تتكون لدينا القدرة على «الجمع بين القراءتين»، واكتشاف التداخل المنهجى بين منهجى الوحى والكون، فمنهجية القرآن موازية لمنهجية الوجود، ولا ينبغى الاقتصار على قول ذلك نظريًا أو إدراجه فى دائرة «فضائل القرآن»، ولكن ينبغى اكتشاف ذلك تطبيقيًا. فالقول النظرىّ قد لا يتجاوز حالة تبشير بفَرَضيَّة قد تكون غير صحيحة أو مما يمكن الطعن فيه، ولهذا يكون التحدى الأول والأهم للمسلم المعاصر هو الكشف عن التداخل المنهجىّ بالجمع بين القراءتين: أى بين الوحى الإلهى والعلوم

الطبيعيَّة والإنسانيَّة القائمة على السنن الإلهية فى الكون والحياة والإنسان. أما الحديث عن عظمة القرآن وفضائله، فإن القرآن عظيم حقًا ومعجز فعلاً وذو فضائل تجل عن الحصر، وقد كتب الناس عن عظمته وإعجازه وفضائله آلاف الصفحات، بل ملايينها، لكن تلك الكتابات لم تستطع أن تكشف للناس عن منهجيَّتة المستوعبة للكون وحركته، والمتجاوزة لها، والقادرة على إقامته على قواعد الهدى ودين الحق. كما لم تؤد إلى الكشف عن التداخل المنهجىّ بين قراءة القرآن فى وحدته البنائيّة، وقراءة الكون فى وحدته القائمة على سننه وقوانينه. فقد بقيت آيات كريمة كثيرة ومقولات دينيَّة كثيرة عرضة لتأويلات شتى. وفى كثير من تلك التأويلات تبدو الإسقاطات الإسرائيلية ونحوها واضحة.

كذلك(٢٢) بقيت فى المعارف الإنسانية والاجتماعية الحديثة، بل وفى

---

(٢٢) الإسرائيليات قد تداخلت مع جوانب كثيرة، من أبرزها التفسير، وقد جرت محاولات كثيرة ولا تزال تجرى لفصل تلك الإسرائيليات عن تراثنا التفسيرى، كتب فى ذلك الشيخ محمد حسين الذهبى وأبو شهبة ورمزى نعناعة وآخرون كما أعدت دراسات جامعيّة فى «إسرائيليات تفسير الطبرى» وغيره. ولم تفلح تلك المحاولات كثيراً فى وضع خطوط فاصلة بين الإسرائيليات وغيرها فى التراث، وذلك لأن التراث الإسرائيلى كان يشكل جزءًا أساسيًا من الثقافة الشفويّة فى جزيرة العرب عند البعثة. ولأن كثيراً من علماء بنى إسرائيل قد أسلموا ودخلت معهم ثقافتهم التي كانوا يحملونها، وانتقلت إلى المعارف الإسلاميّة، ودونت فى عصر التدوين على أنّها جزء من تلك المعارف. وقد أورد ابن خلدون فى مقدمته تعليلاً وتحليلاً جيداً لأسباب ذلك التداخل وطبيعته من المفيد إيراده. يقول ابن خلدون: «إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوفوا إلى معرفة شىء من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم =

العلوم الطبيعية المعاصرة كذلك أبعاد غائبة، وأسئلة كثيرة حيرى لا تجد من مدارس تلك العلوم المختلفة إجابات شافية، لأنها لم تكتشف ذلك التداخل المنهجى بين القراءتين إلا فى حدود جزئية تمثلت فى محاولات انتقائية يغلب على بعضها التلفيق الذى يجعلها تبدو مفتعلة إلى حد كبير كتلك المحاولات التى تبدو فيما عرف أخيراً بـ«الإعجاز العلمى».

= ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم! مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها مثل بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم. وتساهل المفسرون فى مثل ذلك، وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين كانوا يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنه بعد صيتهم، وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ».

كما لخص محمد عزة دروزة - رحمه الله - روايات كثيرة عن مختلف المصادر العربية القديمة التى عززتها روايات الآخرين ومصادرهم، أن جماعات من بنى إسرائيل قد جاءوا إلى مختلف المناطق الحجازية من أمد بعيد واستقر أكثرهم فى يثرب فى ناحيتها على طريق الشام، وكان بعض أفرادهم يترددون على مكة أو يقيمون فيها. وقد تعلموا اللغة العربية واشتركوا فى حياة العرب وتقاليدهم وصار لهم فيهم أنصار وحلفاء ومحبون ومراكز قوى، وأنهم نشروا عن أنفسهم علماً واسعاً فى الأديان والشرائع وأخبار الأمم وسنن الكون والدين السماوى الذى يدينون به والكتاب المنسوب إلى الله ورسله الذين يتداولونه، وكانوا يزهون بذلك على العرب ويفخرون ويستفتحون عليهم بل ويدلسون فى كل ذلك عليهم، ويظهرون غروراً وخيلاء وتبجحاً بما عندهم من العلم وما يصدر عنهم من معارف ولو كان فيها زيف وتدليس، ويزعمون أنهم أولياء الله وأحباؤه وأصحاب الحظوة لديه، وأن ذلك قد أثر على العرب تأثيراً غير يسير فكان=

فتأكيدنا[٢٣] الدائم على ضرورة وجوب «الجمع بين القراءتين»، وحسبان ذلك شرطاً مسبَّقًا للخروج من الأزمة الفكرية والمعرفية فى

= لليهود بسببه مكانة ممتازة صاروا بها مرشدين وقضاة، وأنه كان لهم كيان طائفى دينى ولهم معابدهم ومدارسهم وأحبارهم وربانيوهم. وكان لهؤلاء تأثير كبير فى أبناء الطائفة كما كانوا قضاتهم، وكان منهم من يتخذ منصبه ونفوذه وسيلة إلى ابتزاز المال بالباطل. وكانوا يتعاطون السحر والشعوذة أيضًا. وكانوا جاليات كثيرة العدد، منهم بل أكثرهم استقروا فى أحياء خاصة لهم فى يثرب المدينة وحصّنوها كذلك بالقلاع والحصون والأسوار، ومنهم من سكن فى مزارع وقرى خارج المدينة منها القريب ومنها البعيد وحصّنوها بالقلاع والحصون والأسوار، وكانوا يقتنون مختلف أنواع السلاح وبكميّات كبيرة من سيوف ورماح وقسىّ ونبال وحراب ودروع. ولم يكونوا متحدين فى كيان سياسى وعسكرى ودينى، بل كانوا فرقًا وأحزابًا، وكانوا على خلاف ونزاع وعداء. وكان فى المدينة قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج وكان بينهما نزاع وعداء وحروب. فكان فريق من اليهود متحالفًا مع إحداهما وفريق آخر مع الأخرى، وكان كل فريق يقاتل مع حليفه الفريق الآخر مع حليفه من اليهود. ومع ذلك فقد كان طابع الذلة والمسكنة والجبن والغربة والفزع يطبعهم جميعاً فكانت محالفتهم مع العرب بالإضافة إلى حصونهم وقلاعهم وسلاحهم وسيلتهم إلى الاستمساك والبقاء، وكانوا لأجل ذلك يحرصون على أن يبقى النزاع والعداء قائمًا بين القبيلتين العربيتين، وكانت لهم حقول ومزارع وبساتين وأموال وأملاك. وكانوا يشتغلون بالتجارة والصناعة والربا، فكان كثير منهم نتيجة لذلك أغنياء وأصحاب ثروات، وكان ذلك يساعدهم على النفوذ والتأثير بالعرب أيضاً.

راجع مقدمة ابن خلدون: (ج٣ ص ٩٣٥، ٩٣٦)/ تأليف عبد الرحمن بن محمد بن خلدون؛ تحقيق د. على عبد الواحد وافى. - نهضة مصر، ٢٠٠٤. وراجع «القرآن والمبشرون»، و كتابنا «إشكالية الردة» (٣٤- ٣٦) ط. مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة.

(٢٣) الإعجاز العلمى كان قد بدأه - فيما نعلم - الإمام فخر الدين الرازى بتفسيره «مفاتيح الغيب» أو التفسير الكبير، ولكنه شاع - أخيراً - وانتشر بين المتأخرين وقامت على أساس من خدمته مؤسّسات كثيرة، وكتب فيه كاتبون. ومع إقرارنا بفوائده فى تعزيز=

مستوياتها العالمية والمحلية يحمل توكيداً على وجوب الالتفات إلى ذلك الارتباط المنهجى بين القرآن والكون والإنسان: فالقرآن ضم قواعد «الوحى الإلهى» الذى جاء به المرسلون كافة. والكون مجال كلمات الله ومظهر إرادته ومشيئته. والإنسان مستخلف للاهتداء بالوحى فى إعمار الكون. وبذلك تكتمل حلقات التصور الإنسانى، وتظهر سائر مقوماته، وتبرز علاقة الغيب بالطبيعة والإنسان. ويتخلص الإنسان من مأساة الفصام بين اللاهوت والناسوت والملكوت أو بين الدنيا والآخرة، أو بين التنزيل الإلهى والفلسفات الوضعية البشرية، وما جره ويجره ذلك الفصام النكد من مشكلات.

= إيمان بعض من استولت عليهم ثقافة العصر، وصار إسقاط ثقافة العصر على القرآن، وتعزيز موقعه بها مريحًا لهم، ومخرجًا لهم من الحيرة والتردد بين القرآن وثقافة العصر فإنّنا نربأ بالقرآن أن يدور حول ثقافة العصر القلقة المترددة، وعلومها المتذبذبة بين اليقينية والنسبيَّة والاحتمالية إنّ قصارى ما يقدِّمه ما يسمَّى «بالإعجاز العلمى» أن يجعل القرآن مساويًا لثقافة العصر يحاول الحصول على تأييدها ومباركتها، وذلك سوف يخدم ثقافة العصر، ويروج لها بين المسلمين أكثر مما يخدم القرآن المجيد نفسه، وذلك يصادم القول «بإطلاقيَّة القرآن» ويسقط عليه نسبيَّة واحتماليَّة ثقافة العصر. وإذا كان العلم قد تحول فى قرن واحد أو أكثر قليلاً من اليقينيَّة إلى الاحتماليّة والنسبيّة، ومن السببيّة الصلدة الجامدة إلى السببيَّة السائلة فما الذى سوف يحدث للقرآن وصفاته إن نحن أسقطنا ثقافة العصر عليه؟!

أما «الجمع بين القراءتين» و«منهجيَّة القرآن المعرفية» فإنها على النقيض من ذلك تجعل القرآن هو المصدّق على ثقافة العصر وعلومه ومناهجه، وهو الذى يقرّر صلاحيَّة الصالح منها، أو عدم صلاحيَّته، وهو المهيمن عليها، والحاكم فيها. والله أعلم.

إن هذه المهمة لا يستطيع النهوض بها إلا من أوتى القرآن وحظا من العلوم والمعارف كافيًا لاكتشاف ذلك التداخل المنهجى بين القرآن والكون والإنسان، ولذلك أرسيت قواعد «المنهج القرآنى» على الدعائم التالية :

١- **إعادة بناء الرؤية الإسلامية المعرفية** القائمة على أركان العقيدة المحددة المحصورة كما جاء بها القرآن ومقومات وخصائص التصور الإسلامى السليم المنبثق عنها، ليتضح ما يمكن حسبانه «النظام المعرفى الإسلامى» القادر على الإجابة عن «الأسئلة الكلية النهائية» ومعالجة ما أسماه الفلاسفة المتقدمون «بالعقدة الكبرى» دون تجاوز شىء منها، وبناء قدرة ذاتية على النقد المعرفى الذى يمكن من الاستيعاب والتجاوز بشكل منهجى منضبط، فى الوقت نفسه يعطى القدرة على التوليد المعرفى والمنهجى وبه يتحقق الإبداع. والتفسير المعرفى الذى لا يقوم على الإقناع والخطابة بل على المعرفة المنهجية التامة.

٢- **إعادة فحص وتشكيل وبناء قواعد المناهج الإسلامية** فى مجالاتها المختلفة، وذلك بعرضها على «المنهجية المعرفية القرآنية» وتعديلها بنورها وعلى هدى منها. فإن أضرارًا بالغة قد أصابت هذه المنهجية نتيجة القراءات المفردة والتجزيئيَّة التى جعلت القرآن عضين، وقرأت الوجود والإنسان فى معزل عنه قديمًا وحديثًا. وليتمكن العقل المسلم من تجاوز تلك الأمراض الفكريَّة التى شلّت فاعليَّته كالاضطراب فى فهم علاقة الغيب بالشهادة، وعلاقة النقل والعقل، وعلاقة الأسباب بالمسبّبات وغير ذلك من أمور.

٣ـ **بناء منهج للتعامل مع القرآن المجيد** ومعرفة مداخل قراءته من خلال هذه الرؤية المنهجية التحليليَّة، بحسبان القرآن مصدراً منشئًا للمنهج والعقيدة والشرعة والمعرفة ومحدّدًا لمقوِّمات الشهود الحضارىّ والعمرانىّ، وقد يقتضى ذلك إعادة بناء وتركيب نظريّات علوم القرآن المطلوبة لهذا الغرض، وتجاوز بعض الموروث فى هذا المجال من تلك المعارف التى أدت دورها فى خدمة النّص القرآنىّ، واستفاد بها العلماء فى مراحل تأسيسها التاريخّية، وبدأت الحاجة تبرز إلى البناء عليها تلبية لحاجات الأمة فى حاضرها ومستقبلها. فالإنسان العربى قد فهم القرآن ضمن خصائص تكوينه الأولى عقليًا ونفسيًا ولغويًا، وكانت تلك الخصائص التكوينيَّة بسيطة فى بداياتها ومحدودة اجتماعيًا وفكريًا يغلب أن تتم فى إطار لغوىّ ومعطيات نقليّة شفويَّة تجعل الاهتمام ينصب على صحة النقل، وتوثيق الرواية بالطرق المتعارف عليها لديه التى كانت تمثِّل أرقى المعارف فى طرق التوثيق فى عصره. وحين بدأ التدوين الرسمى للعلوم والمعارف النقلية الإسلاميَّة التى دارت حول النص القرآنىّ والحديث النبوىّ فى القرن الهجرى الثانى، برزت تلك الخصائص فيما كان قد دوِّن من علوم ومعارف. كما ظهرت إلى جانبها خصائص العقليّة البلاغيّة واللّغوية العربيّة فى تلك المرحلة وما تقتضيه من اتجاه نحو التجزئة باتجاه دراسة الجمل والتراكيب مع ملاحظة المفردات ابتداءً. فلا غرابة أن يعرَّف «التفسير» وهو أهم علوم الفهم: بأنه «معرفة أحوال كلمات القرآن وألفاظه»، فتلك كانت هى المنهجية السائدة، ولذلك عُدَّ

الفهم الذى تولد عنها مقبولاً وكافيًا فى تلك المرحلة والمراحل التى تلتها .

أما فى المرحلة العالمية الإنسانيَّة الراهنة ، حيث تسيطر «عقلية الإدراك الإنسانى المنهجى» للأمور ، والبحث عن العلاقات الناظمة لها بطرق تحليليَّة ونقديَّة توظف الأطر والقواعد العلميَّة المختلفة ، وتربطها بموضوعات حضاريَّة متشعبة ، وعلاقات متنّوعة ، فلا بد من إعادة النظر فى كيفيّة إنماء وتجديد علوم وسائل فهم النص وخدمته وقراءته قراءة الجمع مع الكون ، وإدراك أبعاد التداخل المنهجى بين القرآن والكون ، وتنقية كثير من جوانب التفسير والتأويل والتراث المتعلق بتلك المراحل ، لإزالة آثار الربط الوثيق بالنسبى من خلال الإسقاطات الإسرائيلية وغيرها ، والربط التام بأسباب النزول والمناسبات . ولكى تظهر وجوه التحدى بالقرآن العظيم ، وجوانب إعجازه المؤثرة فى هذا العصر ينبغى أن يضاف إليها - الآن - البعد الاجتماعى والمنهجى ليتحقق التحدى الدائم به ، ويبرز إعجازه الذى يُعَدُّ الدليل المنهجى الأول على إطلاقيته ، وعدم نسبيته وبطبيعة الحال فإننا نتجاوز «الإعجاز العلمى» ، لأنه لا يعدُو أن يكون اسقاطاً لثقافة العصر على القرآن ، وذلك ليس من مقصودنا .

٤ـ **بناء منهج للتعامل مع السنة النبوية المطهرة** - أيضًا - من خلال تلك الرؤية المنهجية ، وبحسبان السنة النبويَّة المطهَّرة مصدرًا مبيِّنًا للقرآن المجيد وتطبيقًا لما جاء القرآن به ، وتنزيلاً له فى الواقع المتحرك ، يحمل تفاصيل وتطبيقات المنهج والشرعة ، وقواعد المعرفة ودعائم ومقومات الشهود

الحضاريّ والعمرانيّ، فقد كانت مرحلة النبوة وعصر الصحابة مرحلة تعتمد على الاتصال المباشر برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - ومتابعته والتأسِّي به فيما يقول أو يفعل: «خذوا عنى مناسككم»، «صلوا كما رأيتمونى أصلى»[٢٤]، والاتِّباع والتأسِّي يعتمدان على ملاحظة التحرُّك العمليّ والتطبيقيّ لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرته فى الواقع. فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم - كان يجسِّد بسلوكه القرآن فى الواقع، ليحقِّق الربط بين النص والحياة، ويبيِّن «فقه التنزيل». فالتطبيق النبوى والبيان المحمدى كانا يضيِّقان الشقة تمامًا بين مكوِّنات ومكنونات المنهج الإلهى القرآنيّ، وبين الواقع بمستوى ثقافة أهله وعقلياتهم وقدراتهم الفكريّة والمعرفيّة، وتصوراتهم السائدة آنذاك، وبشروط ذلك الواقع الاجتماعيّة والفكريّة فى إطار ذلك السقف المعرفى والعلمي واللغويّ السائد فيه، ولذلك كان الرواة من الصحابة - رضوان الله عليهم - حريصين على ألاَّ تفوتهم أى جزئية تتعلق بحياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأن ذلك هو البديل الوحيد عن الوعى بالمنهج الناظم للقضايا المختلفة فى عصرهم، واستخلاص منهج التطبيق

(٢٤) وحديث: . . . «لتأخذوا عنّى مناسككم فإنى لا أدرى لعلىّ لا أحجُّ بعد حجتى هذه». صحيح مسلم/ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى. - دار إحياء التراث، رقم الحديث (١٢٩٧)، (ج٢، ص ٩٤٣) تجده فيه بتمامه وبلفظ آخر.

وحديث: « . . . وصلوا كما رأيتمونى أصلّى . . . ». صحيح البخارى/ تحقيق مصطفى ديب. - دار ابن كثير واليمامة. - ط٣، ١٤٠٧هـ، رقم الحديث فيه (٢٢٦)، ص ٦٠٥، فراجعه بتمامه فيه. وراجع المحصول للإمام الرازى بتحقيقنا (٣/ ٢٤٣ و٢٥٠).

منها لمن يأتى بعدهم. ولذلك اشتملت المرويَّات على ذلك الكم الهائل من أقوال وأفعال وتقريرات رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وتلقينا كل تلك التفاصيل التى تجعل سائر الأجيال التالية لجيل التلقى قادرة على أن تتأسى به، وتستخلص من ذلك منهجًا لاتباع القرآن وهى تتابع حركته اليومية - عليه الصلاة والسلام - فى غدوه ورواحه وسلمه وحربه وتعليمه وقضائه وقيادته وفتواه، وممارساته الإنسانية بطريقة تكشف عن أسلوبه أو سنته - عليه الصلاة والسلام - أو منهجه فى التعامل مع الواقع، وتكشف - إضافة إلى ذلك- عن خصائص الواقع الذى كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتعامل معه، ويمارس حياته فيه، ويتحرك فى مجالاته. وهذا الواقع - لا شك - مغاير للواقع الذى نحياه فى تركيبته وقضاياه ومشكلاته، وعلاقات أهله، مغايرة نوعيَّة. إضافة إلى المغايرة الكميَّة التى نسلِّمها جميعًا.

لقد كان عليه الصلاة والسلام فى سيرته وسنته يمثل تجسيدًا للربط بين المنهج القرآنى والواقع المعيش، ولذلك فإنَّ من الصعب فهم الكثير من القضايا فى معزل عن فهم ذلك الواقع الذى كان عليه الصلاة والسلام يتحرك فيه، ويجاهد ويجتهد لتغييره وإصلاحه، ويكون ذلك الفهم بدراسة واقع عصر النبوة وما فيه إضافة إلى أسباب ورود الأحاديث والأحداث التى ترتبط بها.

وهذه الأحاديث قد يحولها المختلفون إلى أقوال جزئية قد تدل على الشىء ونقيضه، وكأنها أقوال أئمة المذاهب المختلفة، إذا لم يلاحظ

الرابط المنهجيّ بينها. لقد ارتبط المسلمون فى مرحلة نزول القرآن بمفهوم التأسّى والاهتداء والاتّباع والاقتداء ولم يؤمروا بالتقليد أبداً. وهذه المفاهيم الأربعة تشترك فى أن تحقيقها يقتضى معرفة منهج المتأسَّى به - صلى الله عليه وآله وسلم -، ولذلك أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالاهتداء بهدى من سبقه من الأنبياء والرسل: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: ٩٠]، أى بمنهجهم فى الطاعة والدعوة والتبليغ والبيان والتطبيق، ولم يؤمر بتقليدهم. وقد مكن ذلك من اتخاذ الصحابة من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قدوة عملية جسدت لهم «المنهج» طبقًا لشروطهم الواقعيّة الحياتيّة. ويمكن ملاحظة ذلك فى مواقف الشيخين - رضى الله عنهما - من السنن، وأم المؤمنين عائشة وبقية كبار قراء وفقهاء الصحابة . ومن الاتِّباع والاقتداء والاهتداء نشأت اتجاهات التعامل مع «المأثور والمنقول»، فاهتدى بذلك من اهتدى، وزاغ عنه من زاغ، وأصاب الفهم الدقيق لذلك المأثور من وفقه الله، وجانبه من خذل. فبرزت لدى بعض من جاء بعدهم الحاجة للتخفيف من الآثار التى نجمت عن التعامل الجزئىّ مع القرآن المجيد، ورواية الأحاديث والسنن مجزأة وبعيدة عن سياقها ومنفصلة عن القرآن. فلجأ - بعد ذلك - من لجأ إلى التأويل الباطنىّ والتفسير الرمزىّ والإشارىّ بوصفه مخرجًا من التقيُّد بحرفيَّة المأثور أو بجزئيَّاته. واستسهل البعض رد الأحاديث، ولكن بعض التأويلات ما زادت ذلك الأمر إلا اضطرابًا. وثارت بعد

ذلك مشكلات «حجيَّة السنة» جملة أو حجيّة بعض أنواعها وغير ذلك من قضايا لا نزال نعانى منها، ومن الآثار الفكرية التى تخلفت عنها. ولو أنه تم الكشف عن المنهج القرآنى للتعامل مع ما قاله أو فعله أو أقره الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - لأمكن أن ينضبط التعامل مع ذلك المنقول - كله - ولردت الجزئيَّات إلى الكليّات، ولفهمت فى إطار المنهج سائر القضايا الجزئيَّة، لأنّ المنهج كفيل بتبيُّن المقاصد، واتضاح الغايات.

إن العقلية المعاصرة عقلية تبحث - باستمرار- عن الناظم الموضوعىّ للأمور، وتحاول النفاذ إلى المنهجيّة الكاملة فى الأبعاد المختلفة، هذه المنهجية تعتمد على التحليل المنهجى والتفكيك والنقد والتفسير وتجعلها الوسائل الأساسية والإطار الموضوعىَّ للحركة الفكريَّة فى تعاملها مع النصوص والقضايا الكونيّة والمحليّة. وبهذه المنهجيَّة يمكن النفاذ إلى مقاصد القرآن المجيد ومحاوره وقيمه العليا وكليَّاته، وتفهم السنن النبويّة فهمًا منهجيًا يحمى من الوقوع فى إطار ماضويّة أو تاريخانيَّة سكونيّة أو تأويلات باطنيَّة، أو محاولات تجديديَّة تعمل على إحداث تعديلات أو تأويلات لتطبيقات الماضى لتعيد إنتاجها فى الحاضر، فكأنَّها تعبير عن الماضى فى ثوب جديد.

٥- **إعادة دراسة وفهم تراثنا الإسلامى** وقراءته قراءة نقديَّة تحليليّة معرفيّة، ومقايسته إلى منهج التصديق والهيمنة القرآنيَّين لنخرج من

الدوائر الثلاث السائدة التى تحكم أساليب تعاملنا مع تراثنا - فى الوقت الحاضر - : دائرة الرفض المطلق له -ودائرة القبول المطلق، ودائرة الانتقاء اللاّمنهجى. فهذه الدوائر الثلاث لا تمكننا من التواصل مع ما يجب التواصل معه من هذا التراث، كما لا تساعدنا فى تحقيق القطيعة مع ما يجب إحداث القطيعة معه من ذلك.

٦- **بناء منهج للتعامل مع التراث الإنسانىّ المعاصر** - أيضًا - أو ما يعرف بـ «التراث الغربىّ» أو «الفكر الغربىّ» يخرج تعامل العقل المسلم معه من أساليب التعامل الحاليَّة التى تخلفت عن أطر ومحاولات المقاربات، ثم المقارنات، ثم المقابلات والمعارضات لتنتهى بالرفض المطلق بروح مستعلية متجاهلة، أو القبول المطلق بروح مستلبة تمامًا أو الانتقاء العشوائىّ المتحيّز له أو عليه.

فهذه الخطوات أو المحاور أو المهام الست هى التى يمكن أن نطلق عليها خطوات أوليَّة باتجاه بناء «المنهج التوحيدىّ للمعرفة». وذلك لأننا نجد أنفسنا لأول مرة أمام وضعيَّة عالميَّة تعمل على توظيف المعارف والعلوم واكتشافات العلوم ومنجزاتها توظيفًا يفصم العلاقة بين الخالق والكون والإنسان، وذلك بطرح تصورات حول الوجود يبدو بعضها نقيضًا للتصور الدينىّ عامَّة ولرؤيتنا المعرفيّة الإسلاميَّة خاصة، وسواء أكان ذلك حقيقة واقعة أم لم يكن فإن تجاوزه لن يكون بأن ننتقى من مقولاتنا التراثيَّة ما يجعلنا نقاربها مع ما يتوافق مع تلك التصورات لنقول: إنَّها لدينا من قبل أو نرفضها وندمغها بالكفر، فمنطلقنا ومنذ

الأساس تجاه العلوم الكونية ليس منطلقًا لاهوتيًا أو كهنوتيًا، وليس مطلوبًا منا تقليد غيرنا، فإن تجربتهم فى مواجهة العلم ومنجزاته تختلف عن تجربتنا، فلو كان القرآن لاهوتًا لما جازت فيه إلا قراءة البعد الواحد، أى القراءة الأولى فقط، وقد أمرنا بقراءتين، فنحن لم نصارع العلم، ولم نقابله بالرفض وقتل العلماء، لأننا ندرك أن الوحى فى الكون الكتابى هو الوحى الذى فى الكون الطبيعى، ولكل منهما أسلوب ومنهج قراءة يخصه، فإذا ظهرت انحرافات أسندت إلى العلم، فالمطلوب منا هو: تطهير العلم منها، وإذا ظهرت انحرافات فى التفسير والتأويل، فيجب حماية النص منها. وهذا أساس «الجمع بين القراءتين». إذ لم يكن الدين من قبل يواجه سوى فكر عقلى وضعىّ مجرد ولم يكن مسلحًا بالعلم التطبيقى المعاصر ونتائجه التى أدت إلى قيام مذهبيات تجاوزت الوضعية التقليدية، فالمطلوب منا - كما أمرنا - استرجاع أو استرداد العلم من هذه المذهبيّات وتطهيره وإعادة توظيفه، وتنقية علوم ومعارف خدمة النص مما ألحق بها أو أضيف إليها، لتستقيم القراءة وتتحقق إمكانات «الجمع بين القراءتين».

المهمة قرآنية وكذلك عالمية

هذه المهمة - المتمثلة فى بيان وإبراز منهجية القرآن المعرفية مهمة عالمية: تهم العالم كله، ويحتاج إليها العالم كله، وإن تصورها البعض مهمة فى إطار الخصوصية الجغرافية والبشرية الإسلامية، فنحن - فى

عصرنا هذا - جزء متفاعل مع عالم اليوم، لا بغزوه الثقافى، فذاك أمر كان سائدًا فى القرنين - الثامن عشر والتاسع عشر، ولكن تفاعلنا مع عالم اليوم يتم بغزو العلم التجريبى التطبيقى الذى يتطلب منا جهدًا فى بيان «منهجية القرآن المعرفية» يعادل جهد أسلافنا الكرام فى مواجهة الغزو الفكرى الذى دق أبوابنا مع الثورة الفرنسية، إذ كنا نواجه وقتها حالة عقلية مجردة، وبإمكانيات الوضعية العقلية المحدودة، أما الآن فإن المواجهة مع عقل علمى تجريبى فرض نفسه، وأعاد صياغة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية كلها بمرجعية تجريبية، فإما أن نتحول إلى موقف الدفاع اللاهوتىّ العاجز - ومنا من يفعل ذلك - وإما أن نتحول إلى العمل على اختراق النسق الحضارى والثقافى المعاصر برؤية قرآنية كونية وجامعة!! فهذه العلوم التجريبية - كافة - ما زالت تتعثر فى انطلاقاتها، مقيدة إلى الجزئىّ ولم تأخذ بعدًا كونيًا كليًا يحتويها، والبعد الكونى كامن فى الوحى القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٦، ٥٧].

ومع كون المهمة عالمية يتأكد - أيضًا - كونها قرآنية محضة، فأمام التدافع الدينى، وإفلاس الأنساق الحضارية العالمية، وختم النبوة وبروز الأزمات الفكرية والمعرفية عالميًا ومحليًا، يتصدى القرآن وحده لخوض

معركة شاملة بحسبانه كتاب وحى مطلق، ليستمر فى عطائه وكرمه بعد أن لم يعد لدى الآخرين ما يقدمونه، فهى معركة اختبار لنا فى مدى فهمنا لمنهجية القرآن وقدرتنا على إصلاح وتسديد المسيرة الحضارية به، وإخراج مختلف مناهج العلوم من أزماتها عبر «الجمع بين القراءتين»، فالعلوم المعاصرة قد بلغت اليوم مراحل متقدمة جدًا فى معرفة وإدراك الظواهر، فلم تعد الظواهر كما فهمها جمهرة المتقدمين أو تمثلها العالم القديم - تلك الظواهر الشاخصة والمجسدة أمام العين الناظرة، فالحواس التى كانت هى وسيلة التعقل أفسحت المجال الآن لحواس مجهرية وإلكترونيَّة أعطت مفاهيم جديدة للظاهرة، فإذا فهم الأقدمون الذرة بوصفها حبة رمل أو تراب مرئية - فإن الذرة اليوم ذرة مجهرية قد تحول معناها مما يبصر إلى ما لا يبصر: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وصارت تفجر وتحول إلى طاقة، وهنا نفهم دقة القرآن المجيد وحكمته فى قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وحيث فهم الأقدمون الأطوار التاريخيَّة فهمًا تعاقبيّاً تكراريًا قائمًا على «كر الجديدين» الليل والنهار، فإن الأطوار اليوم تتمثل فى صيرورة وتغيُّرات كيفيَّة لا مجرد تغيُّرات كميَّة فقط، وهذا هو الذى يوضح المراد بالسببيَّة العلمية المعاصرة التى تقوم على صيرورة وتحولات كيفيّة بالدرجة الأولى.

منهجية القرآن والمصير الإنسانى

ليست قضية «منهجية القرآن» - إذن - مجرد ضرورة أو حاجة فلسفية مجردة، لأنها وهى تقدم «الجمع بين القراءتين» تقدم دليل إنقاذ الفكر البشرى من أزمة اللاهوت المستلب للإنسان والطبيعة، وهى فى الوقت ذاته تخرج من الإطار الوضعى كل ما يفصم العلم عن خالقه، فلكل من المنهجين آثاره وإسقاطاته على حياة الإنسان ونسقه الحضارى ومبادئه وتشريعاته، فمنهجية القرآن - عند التأمل الجاد لها - تعد أهم مقدمة «لبديل حضارى عالمى» لا يستهدف إصلاح أوضاع المسلمين فقط، بل يستهدف إصلاح العالم كله، وهذه مهمة تتطلب الكثير من البحوث المميَّزة الجادة فى القرآن العظيم نفسه بفهم تحليلى جيد ومن منظور علمى وعالمىّ منهجىّ، وهذه هى غاية «منهجيَّة القرآن» الأساسية أن تجعل من القرآن كتاب هداية، ودليل استخلاف، وسبيل خلاص، ومنطلق عمران. إنه بدون فهم القرآن فهمًا منهجيًّا فى إطار وحدته وبنائيَّته الكاملة فهمًا يتصل وينعكس على فهمنا المنهجى المعاصر للظواهر الكونية، وسنن حركتها فى «وحدتها البنائيّة» أيضًا، يستحيل تأسيس عمران سليم. فمنهجية العالم المعاصرة من شأنها أن ترد الكثرة إلى الوحدة، وتحلل الظاهرة بحثًا عن العلاقات والسنن الكامنة فيها وفيما وراءها، ولا يكتفى بتفسيرها. والقرآن (المكنون المجيد الكريم) قابل فى وحدته البنائية الكلية لهذا الفهم المنهجى، بحيث ندرس الكتاب الكريم

بمثل المنهجية التى يدرس بها العلماء الكون العظيم، وكما ذكرت بعقلية علمية عالمية قادرة فاعلة تستطيع إدراك التداخل المنهجى بين «منهجية القرآن» و «سنن ومنهجية الكون».

لا شك فى أن هناك أزمة لا بد للعالم من تجاوزها والتغلب عليها، وتبدو هذه الأزمة - بوضوح - فى أن العقل العلمى العالمى المعاصر يرفض كل الكتب الدينية، وإذ يتسامح مع بعض موضوعاتها، فإنه يصمم على رفض منهجية أى منها، ولا يدرك وحدة بنائية لأى منها، ولا يتفهم إطارها الغائىّ مؤكدًا على أن اختصاص أى كتاب دينىٍّ يجب أن يتوقف عند الاقتناعات الإيمانيَّة وغيبيَّات ما وراء الطبيعة. وبالتالى فإن «الجمع بين القراءتين» - الغيبية والموضوعيّة - يبدو فى نظر هؤلاء العلمويِّين مستحيلاً طالما أن هناك مقولات فى الكتب الدينية تتعلق بالغيب الذى لا يمكن إدخاله المختبر والتجريب عليه، فإنه لا مجال لاتخاذ أى منها مصدرًا من مصادر العلم، وإلا تم تزييف العلم أو هدم نظريَّاته فكل ما تشير إليه الكتب السماوية من كائنات غير مرئية أو بعض القصص التاريخى الذى لا يخضع لاختبارات العلم الوضعى المعاصر لا يملك أحد - فى نظرهم - إعطاءه الصفة العلمية، ولذلك خرجت اليونسكو على العالم بتعريف للمعرفة ينص على أنها: «كل معلوم خضع للحس والتجربة».

إن هذا المنطلق يصدر عن فهم خاطئ لم يلاحظ قضية «الجمع بين القراءتين» فغاية «الجمع بين القراءتين» أن تنتهى إلى «فهم كونىٍّ» للوجود

لا يقتصر على القراءة الثانية بمفردها. فلو اكتفينا بالقراءة الثانية فقط لبقينا في حدود الإطار الوضعى للفكر الإنسانى ومقولاته حول الوجود، ولمارسنا مفهومًا يعتمد على تفكيك الظاهرة وتجزئتها انطلاقًا من «الجدلية العلمية المعاصرة واحتماليتها ونسبيتها»، وهنا تبرز محاذير القراءة الثانية المنفردة، إذ إنها تنتهى بنا إلى فكر وضعى جزئى لا إلى فكر كونى. أما حين نجمع القراءة الثانية مع الأولى، فإننا نعرج من الجزئى الموضعى المحدود إلى الكلى فى إطلاقه الكونى بما فيه من ظواهر مرئية وغير مرئية، فكل رفض لما يسمونه بالغيبيات والماورائيات هو رفض للقراءة الأولى، القراءة الكونية - فى الوحى- باسم الله خالقًا، فالوحى كلى يستوعب الجزئى والقراءة الأولى تأخذ بعين الاعتبار كل الغيبيات والماورائيات على أنها جزء أساسى فى المنهج، لا بوصفها مجرد مسلمات يجب الإيمان بها فقط، ولكن بوصفها دليلاً على وجود كونى أكبر من معطيات القراءة الثانية، وهذا ما يعطى الخلق حقيقته الكونية المتكاملة. فاستبعاد الغيبيات هو استبعاد للقراءة الأولى التى نجد دلالاتها على مستوى الوجود والخلق الكونى، فهى ليست أساطير أوَّلين كما يتوهم البعض، بل هى أمور ثابتة بأدلة كافية للتدليل على وجودها، وإذا لم نأخذ بدلالاتها فذلك قد يردنا إلى القراءة الثانية الوضعية المتفردة، فلا يسمح لنا ذلك بمعرفة التاريخ الكونى فى معناه الحقيقى. فالقراءة الأولى لا تطلب فقط منا الإيمان بوجود الله، ولكنها توجه إلى ألوهية الله وهيمنة كلماته على التكوين الكونى وارتباط المصير الإنسانى بالتخليق الكونى كله، أى منهجية الخلق المستوعبة لمنهجية الأشياء الموضوعية التى نتعلمها بالقلم.

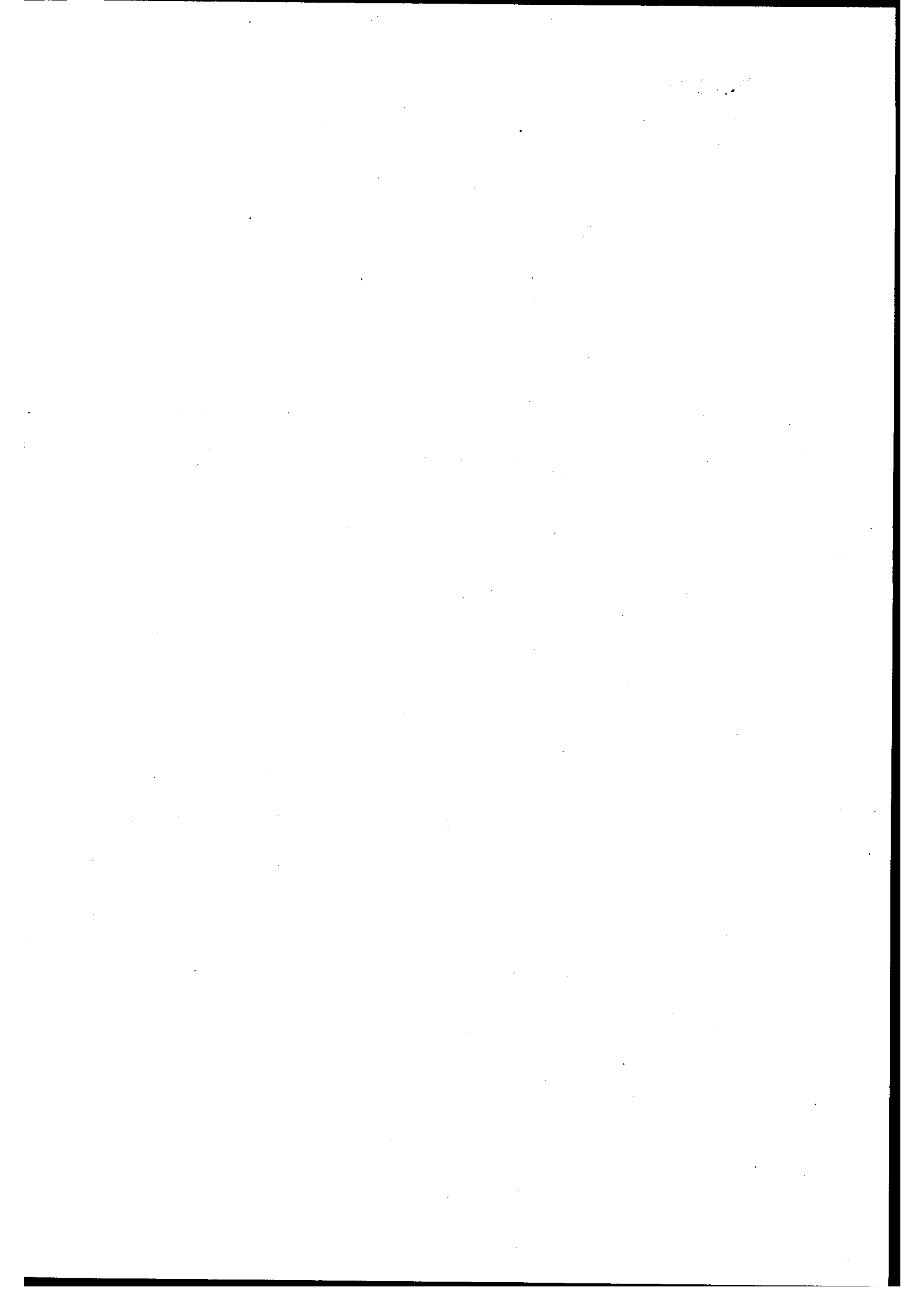
فنجمع بين منهجية الخلق (بالله خالقًا) ومنهجية الشيئية التى يرصدها ويسطرها (القلم) فى قراءة كونية واحدة، فيتحقق الإطار الإيمانى الشامل وإلا صارت المنهجية قراطيس انتقائية تميل بتحيز ذاتى إلى القراءة الثانية دون الأولى.

إن العالم ليخرج من أزمته الفكرية والحضارية يحتاج إلى إدراك البعد الكونى بمعناه الغيبى فى تركيب الوجود ومصيره، وتلك هى مهمة القراءة الأولى التى تبدو للبعض قراءة يجب استبعادها من الدائرة العلمية، لأنها قراءة فى الوحى الذى استبعدوه. وعلينا أن نرد الإنسانيَّة إليه ردًا جميلاً.

المهمة كبيرة، والتحدى ضخم، متسع باتساع هذه الكونية، وبدايتها «الجمع بين القراءتين» وغايتها إنقاذ البشرية ليعم الخير، ويسود الحق وينتشر الهدى، ويدخل الناس فى السلم كافة، سالكين طريق القرآن. وتشرق الأرض بنور الإيمان والقرآن. واستمرارنا فى الحوارات العلمية الهادفة والتطبيقات المنهجية سوف يؤدى إلى إزالة هذه العقبة وغيرها من العقبات من طريق القرآن إن شاء الله. وتعامل أصحاب التخصصات المختلفة مع «منهجية القرآن المعرفية» سوف يؤدى إلى الكشف عن جوانبها الكثيرة، وإقناع العلماء والباحثين بدقتها وسلامتها، وضرورة تفعيلها، والبناء عليها.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

* * *



خاتمة

وبعد : فهذه قضيَّة « الجمع بين القراءتين». وإن شئتَ أطلقت عليها «نظريّة. . . »، قضيَّة تعرض إليها بإيجاز بعض كبار علمائنا أمثال الحارث المحاسبىّ، وأبى طالب المكىّ وإمام الحرمين والفارابىّ والغزالى والرازى وابن حزم والقاضى عبد الجبار الهمدانى. كما تجد شذرات تنبّه إليها فى الموسوعات الأصولية. وتنادى لها الإصلاحيّون فى إطار اتجاهات «المقاربات الفكريَّة» للفكر الوافد: الشيخ محمد عبده ومحمد إقبال ومصطفى صبرى وغيرهم. فلم تأخذ حظها من التداول بين أهل العلم لتنضج، وتستوى على سوقها، وتبرز جوانبها. وزاد فى وضع الحواجز بين العقل المسلم ، وإبرازها منهاجًا، أو محدداً منهاجيًا ما عرف «بالإعجاز العلمى» وقد رأيت أن الشقة بين الجمع بين القراءتين والإعجاز العلمى بعيدة جدًا.

ولعل من أهم معاصرينا الذين تناولوها الأخ محمد أبو القاسم حاج حمد المفكر السودانى يرحمه الله الذى قدمها فى إطار فلسفىّ. ونحن إذ نقدمها لأمّة القرآن اليوم - بهذه الحلّة مترسّمين خطى من سبقنا فإن لنا

كبير الأمل فى أننا قد أبرزنا أهميتها فى محور «المنهجيَّة القرآنيَّة»، وأظهرنا كونها موضوعًا شديد الأهمية عظيم الخطر.

وهذه الدراسة على ما بذلنا فيها من جهد نحتسبه عند الله، فإنّها دراسة مختصرة وجيزة استهدفت تنبيه الباحثين من تخصُّصات مختلفة إلى هذا الموضوع المعرفىّ المهم، ليتناول الأكفاء منهم جوانبه المختلفة، وتفاصيله المتعدِّدة، كل من زاوية تخصُّصه واهتمامه. فذلك ما سوف يبلور هذا الموضوع، وينضج قضاياه، ويساعد على تقديمه للباحثين بحسبانه محدّدًا منهاجيًا سوف يساعد بعد ذلك إبرازه وإنضاجه على معالجة كثير من الاشكاليات فى مجالات معرفيَّة متنوعة: فى فلسفة العلوم الطبيعيّة، وفى الدراسات الدينيّة - إن صح التعبير - إضافة إلى المعارف والعلوم الإنسانيَّة والاجتماعيّة، وبعض القضايا الفكريّة. ولذلك فإنّنا نهيب بالباحثين الأكفاء أن يعملوا على إنضاج هذا الموضوع المهم، ويبنوا عليه ليستوى على سوقه إن شاء الله - تعالى - ولو بعد حين. والله ولى التوفيق.

***

قائمة المراجع

- **ابن الأثير، المبارك بن محمد الشيباني**، جامع الأصول في أحاديث الرسول/ تحقيق محمود الأرناءوط، رياض عبد الحميد مراد، محمد أديب الجادر؛ إشراف عبد القادر أرناؤوط. - بيروت: دار ابن الأثير، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- **الإصلاحي، محمد أجمل محمد أيوب**، مفردات القرآن للفراهي وأهميته في علم غريب القرآن. - المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

- **إقبال، محمد**، تجديد الفقه الديني في الإسلام/ تحقيق عباس محمود العقاد، مهدي علام. - ط٢. ـ القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨م. ٢٢٧ص.

- **الألوسي، محمود شكري**، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ تصحيح على عبد الباري عطية. - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

- **إمام الحرمين، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف**، الغياثي: غياث الأمم في التياث الظلم. - ط٢. -(د. ن): ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. ٦١١ص.

- **البخاري، محمد بن إسماعيل بن ابراهيم**، الجامع الصحيح/ تحقيق مصطفى ديب. - ط٣. -دمشق، بيروت: دار ابن كثير، دار اليمامة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- **البغوى، الحسين بن مسعود بن محمد،** تفسير البغوى : معالم التنزيل/ الحسين بن مسعود بن محمد البغوى؛ تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش. - ط٤ . -الرياض : دار طيبة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- **البقاعى، برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن،** نظم الدرر فى بيان تناسب الآيات والسور/ تحقيق عبد الرازق غالب المهدى . -بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

- **البيهقى، أحمد بن الحسين بن على،** أحكام القرآن للشافعى/ جمع محمد بن زاهد الكوثرى؛ تحقيق عبد الغنى عبد الخالق . -بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- **الترمذى، محمد بن عيسى بن سورة،** سنن الترمذى، وهو الجامع الصحيح/ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، عبد الرحمن محمد عثمان. - ط٢ . -بيروت : دار الفكر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- **ابن الجوزى، عبد الرحمن بن على بن محمد،** زاد المسير فى علم التفسير/ تحقيق أحمد شمس الدين . -بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

- **حاج حمد، محمد أبو القاسم،** العالمية الإسلامية الثانية : جدلية الغيب والإنسان والطبيعة. - بيروت : دار ابن حزم، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

- **الحارث المحاسبى، الحارث بن أسد ،** الرعاية لحقوق الله/ تحقيق عبد الحليم محمود . -القاهرة : دار المعارف، ١٩٩٠م. ص ٤٣١

- **ابن حزم، على بن أحمد بن سعيد،** المحلى. - بيروت : دار الآفاق الجديدة، (د.ت).

- **ابن حنبل، أحمد بن محمد بن هلال،** المسند/ تحقيق أحمد محمد شاكر . -القاهرة : دار الحديث، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

- **الخطيب، محمد عجاج** السنة قبل التدوين .-ط ٤ .-القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

- **ابن خلاد، الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى**، أمثال الحديث/ تحقيق عبد العلى عبد الحميد .-بومباى: الدار السلفية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م. ص ٢٧٩ .

- **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد**، المقدمة/ تحقيق على عبد الواحد وافى .-القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٤م.

- **الخولى، أمين**، التفسير: نشأته، تدرجه، تطوره .-بيروت: دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨٥م. ص ١٠٦ .

- **الدارمى، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل**، سنن الدارمى/ تحقيق فواز أحمد زمرلى، خالد السبع العلمى .-ط٢ .-بيروت: دار الكتاب العربى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- **دروزة، محمد عزة**، تاريخ بنى إسرئيل من أسفارهم وأحوال وأخلاق ومواقف اليهود وفى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبيئته من القرآن الكريم .-بيروت: المكتبة العصرية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م. ص ٥٥٠ .

- **دروزة، محمد عزة**، القرآن والمبشرون .-ط٣ .-بيروت، دمشق: المكتب الإسلامى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. ص ٤٦٣ .

- **الذهبى، محمد حسين**، الإسرائيليات فى التفسير والحديث .- ط٣ .-القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. ص ٧٥١

- **الرازى، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر**، تفسير الرازى/ تحقيق محمد رضوان الداية .-بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م. ص ٥٩٩ .

- **الرازى، محمد بن عمر بن الحسين**، المحصول فى علم أصول الفقه/ تحقيق طه جابر العلوانى .- الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

ـــــــــــــــ : مفاتيح الغيب . -القاهرة: المطبعة العامرة الشرفية، ١٣٢٤هـ.

- **الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله** البرهان في علوم القرآن/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . -ط٢ ، منقحة . -بيروت : دار المعرفة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م .

- **السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد،** الإتقان في علوم القرآن/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . - بيروت : المكتبة العصرية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .

- **الشافعي، محمد بن إدريس بن العباس** الرسالة/ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر . -القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٣٠٩هـ. ص ٦٧٠ .

- **صبري، مصطفى،** موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين . -بيروت : دار إحياء التراث العربي، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م .

- **الطباطبائي، السيد محمد حسين،** الميزان في تفسير القرآن . -قم : جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، ١٤١٧هـ.

- **الطبري، محمد بن جرير بن يزيد،** تفسير الطبري/ تحقيق بشار عواد معروف، عصام فارس الحرستاني . -بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

- **الطوسي، محمد بن الحسن بن علي** التبيان في تفسير القرآن/ تقديم أغا بزرك الطهراني . -بيروت : دار إحياء التراث العربي، (د. ت) .

- **الطيالسي، سليمان بن داود بن الجارود،** مسند أبي داود الطيالسي/ تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي . -القاهرة: هجر، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م .

- **ابن عاشور الطاهر، محمد الطاهر بن محمد بن عبد القادر،** تفسير التحرير والتنوير . -تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م. ٣٠ج .

- **عبد الخالق، عبد الغني،** حجية السنة . -بيروت : دار القرآن الكريم، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص ٥٩٨ .

- **ابن العربى، محمد بن على بن محمد**، أحكام القرآن/ تحقيق محمد عبد القادر عطا. - بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

- **العوانى، رقية طه جابر**، أثر العرف فى فهم النصوص: قضايا المرأة أنموذجًا. - دمشق: دار الفكر، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

- **العلوانى، طه جابر**، إشكالية الردة. -القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٣م.

- **الغزالى، محمد بن محمد بن محمد**، إحياء علوم الدين. -دمشق: دار قتيبة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- **الفارابى، محمد بن محمد بن طرفان**، التنبيه على سبيل السعادة/ تحقيق جعفر آل ياسين آل سعود. -بيروت: دار المناهل، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.، ١١١ص.

- **الفراهى، عبد الحميد**، إمعان فى أقسام القرآن. -دمشق: دار القلم، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.، ص ١٤٧.

- **فياض، محمد جابر**، الأمثال فى القرآن الكريم. - بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٨٨م. ص ٥١١.

- **ابن قيم الجوزية**، إعلام الموقعين عن رب العالمين/ تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادى. -بيروت: دار الكتاب العربى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

-ــــــــــــــ: بدائع الفوائد/ تصحيح محمد منير الدمشقى. -بيروت: دار الكتاب العربى، (د.ت).

- **ابن كثير، إسماعيل بن عمر البصرى**، تفسير القرآن العظيم/ تحقيق سامى بن محمد السلامة. -ط٢ - الرياض: دار طيبة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- **ابن كثير، إسماعيل بن عمر البصرى**، فضائل القرآن/ تحقيق حجازى بن محمد بن شريف. -القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م. ص ٣١٢.

- **الماوردى، على بن محمد بن حبيب،** الأحكام السلطانية والولايات الدينية/ تحقيق عصام فارس الحرستانى، محمد إبراهيم الزغلى . -بيروت: المكتب الإسلامى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. ص ٤٠٦.

- **محمد عبده، بن حسن خير الله،** الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده/ تقديم محمد عمارة . -بيزوت: المؤسسة العربية، ١٩٨٠م.

- **مسلم بن الحجاج بن مسلم،** صحيح مسلم بشرح النووى/ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . -بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

- **ناصف، مصطفى،** مسئولية التأويل . -القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

- **نعناعة، رمزى،** بدع التفاسير فى الماضى والحاضر . -الرياض: مؤسسة الأنوار، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م. ص ٩٨.

- **الهيثمى، على بن أبى بكر بن سليمان،** جمع الزوائد ومنبع الفوائد/ تحقيق حسين سليم أسد الدارانى . -دمشق: دار المأمون للتراث، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م. ص ٤٧٩

- **ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن على،** ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان . -بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. ص ١٧٣.

***

التعريف بالمؤلف

طه جابر العلوانى

* من مواليد العراق عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.
* ليسانس من كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر عام ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.
* ماچستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
* دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٩٢هـ-١٩٧٣م.
* عضو مجمع الفقه الإسلامى الدولى بجدة.
* شارك فى تأسيس المعهد العالمى للفكر الإسلامى فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
* رئيس المجلس الفقهى لأمريكا الشمالية.
* رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية G.SISS فى الولايات المتحدة.

بعض آثاره

١ـ تحقيق كتاب «المحصول من علم أصول الفقه» لفخر الدين الرازى، ستة مجلدات.

٢ـ الاجتهاد والتقليد فى الإسلام.

٣ـ أصول الفقه الإسلامى: منهج بحث ومعرفة.

٤ـ التعددية: أصول ومراجعات بين الاستتباع والإبداع.

٥ـ الأزمة الفكرية ومناهج التغيير.

٦ـ أدب الاختلاف فى الإسلام.

٧ـ إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم.

٨ـ حاكمية القرآن.

٩ـ الجمع بين القراءتين.

١٠ـ مقدمة فى إسلامية المعرفة.

١١ـ إصلاح الفكر الإسلامى.

١٢ ـ نحو منهجيّة معرفية قرآنية.

١٣ ـ مقاصد الشريعة.

١٤ ـ القيم العليا الحاكمة: التوحيد.

* * *

رقم الإيداع ٢٢٥٥٤/ ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. - 977-09-1477-0